رقم الايداع المحلي
2015/69 دار الكتب
الرقم الدولي Isbn
9789959114556

حقوق الطبع محفوظة

مركز دراسات الجنوب الليبي للبحوث والتنمية

البريد الإلكتروني للمركز
info@south.ly
الموقع الإلكتروني
dir/south.ly
الهاتف 00218 21 7102205

اخراج :م -عمر التمتام
تصميم الغلاف :عبدالسلام علي

ضد

رواية

ابراهيم عثمونه

الإهداء

مَن قال أن مَن في القبور لا تصلهم الهدايا حتى لو كانت من أولادهم ، هذا كلام غير دقيق ولم يُجربه أحد , لذا سأضعها له مع أول واحد ، وهناك يتصفح ويطالع الصورة التي أودعها في رأسي.

في الحقيقة كان للخريطة في نفسه مكان كبير . وكان يستغرب كثيراً ساعة يصادف مَن لا يحب الخرائط ، ولا يصدق كيف يولد مخلوق وليس في داخله حب يكبر للخريطة . فالقلب في تصوره ما كان ليُسمى قلب لو لم يُجبل على حب الخرائط ، وكل إنسان لا يحمل في داخله خريطة هو إنسان يعيش بلا خريطة ، وكل وجدان لا يطوي في ثناياه خريطة هو وجدان لا ينطوي على شيء . وكان ذلك يشعره في كثير من الأحيان أن ثنايا وجدانه ربما تكون الأكبر لأنها تطوي أكبر خريطة في العالم.

حتى الدواب ، كان يقول لأصحابه ، تحمل في داخلها خريطة ترشدها لمرابعها ومعاطن الماء حين يشتد بها الظمأ ويقسو عليها العام، فكيف أنت يا صحابي تمشى على غير هدى.

كان يومها لديه مكان مسيَّج بتل معدني فيه ناقتين ، وكان من وقت لآخر يذهب ويجلس قبالة الحاصل ويسعى جاهداً للتطلع إلى شكل الخريطة في افئدة هذه الحيوانات الآتية من مواطن بعيدة ، ولا يخفى عليه وهو جالس أن في لفتات هذه الناقة حنين لمربى طفولتها ، ولو فتح لها الباب لخرجت بهدوء تقودها خريطتها لذلك المكان الذي ما زال عالقاً في وجدانها ، بل لو فتح جزار ماهر صدرها بحرفية لكان بوسعه رؤية صورة وشكل المكان الذي ظل ينهبها من الداخل حتى وهي على بُعد ألاف الأميال منه . فكيف بالله عليك تخرج يا صاحبي من باب بيتكم وليس معك خريطة تنهبك من وقت لآخر كخريطة الناقة، كيف؟ كان يشد ويهز اقرب أصحابه من كتفه وهو يقول له مثل هذا الكلام مرة بعد مرة ، لكن من أصحابه غير مقتنعين بهذه الترهات . أي خريطة وأي وجدان في ناقة أتت من النيجر أو حتى من البرازيل

. هذا كلام فارغ وليس له معنى في عصر بات يضعنا على ابواب عولمة لا تعترف بالخرائط بل لا تعترف إلا بقرية تسكن الكرة وفيها كل البشر من كل الأشكال ومن جميع الأجناس.

كانت فكرة الخريطة مسيطرة عليه إلى الحد الذي لا يمكنه تصور حياة صحية وصحيحة وطويلة الأجل ما لم تحددها خريطة . بل أن كل المخلوقات من أرقاها الذي هو الإنسان ، إلى أدناها التي هي القملة التي تعيش على شعر الإنسان ، جميعهم وُلدوا وقُذفوا لهذه الحياة وفي داخلهم وجدان صغير لخريطة ، وإن أي استبدال للخريطة بصورة كما فعل أحد أصحابه ، يوم وضع صورة كبيرة داخل حاصل الناقتين ليمحو بها الخريطة المزعومة في صدر الناقة ، ويُحل بدلاً منها صورة أخرى ، هو في الواقع تمويه وتضليل للناقة.

لم يُقنع أحد بفكرته في القرية . حتى أولئك الذين كانوا يحملون خريطة في داخلهم دون علم منهم لم يحسسهم كلامه بوجود خريطة جواهم . ربما لأنه لا يجيد عرض فكرته بالشكل المطلوب ، وإلا ما كان لأولئك الذين لا يتنفسون إلا بخريطة أن يجهلوا ما كان يعنيه . وفي المدينة ، وتحديداً في طرابلس ، ما كان ليعترض لو أن مَن فهم فكرته ثم سرقها ، كان قد فهممها وسرقها وحسب ، أو حتى فهمها وسرقها ثم حرقها . ولكن أن يسرقوها ويزوروها هذا ما لم يرضى به ، وهذا ما أحزنه كثيراً وهو يرى أفكاره تُحرَّف وتُنشر في الساحات والميادين . وليس هذا وحسب بل يُضاف لها جملة من الألوان الجذابة التي تشد الناظرين لها . لذلك لن يسكت «مسعود» على هذا مهما كلفه الأمر.

****

طرابلس التي دأب على السفر لها بعد كل حين ، فوجئ يومها بفكرته مقلوبة على جدار السرايا الحمراء ، فصرخ بأعلى صوته ولم يسمعوه أو لم ينتبهوا له ، ربما لأنه عبر عن احتجاجه بشكل مختلف عما عُرفت به الاحتجاجات . لم يصدق بادئ الأمر ما رأى ، إلا حين اقترب ووقف قبالتها وتأكد أن هذه هي فكرته التي لطالما نادى بها في القرية ، وهذه هي التي سلمها لهم على رسم كروكي قبل حوالي شهر في طرابلس ، وليتهم علقوها بشكلها الكروكي أو أحرقوها بشكلها الكروكي أو حتى لم يُعلقوها بشكلها الكروكي ، لكنهم سرقوها وقلوبها وعلقوها على الملأ مقلوبة على رأسها.

اقترب أكثر قبل أن يحتج بطريقته ليتأكد منها ، وأنها فكرته التي لطالما اختلى بها على أطراف القرية ، والتي كبرت في كنفه حتى استوت وصارت فكرة متكاملة ، والتي إن حدث واقتحم أحد خلوته سرعان ما تتلاشى عنه ، والتي لو خيروه بينها وبين أعز شيء لديه في هذه الحياة لاختارها بلا تردد . لذلك من مسافة بعيدة عرفها ولابد انها عرفته لكنه آثر الاقتراب أكثر والتأكد منها ، حتى إذا تأكد انتفض غاضباً ثم انسلخ في ظرف دقائق وتحول إلى كيان مستقل بعد أن كان شيئاً آخر.

عرف خريطته التي سلمها لهم وخال له أنها عرفته واستغاثت به وهي مقلوبة على رأسها لعله يُعيدها ويعدلها ، وشعر بها تطالبه بفعل شيء ، وشعر بيديه مغلولتين عن فعل أي شيء ، وكل ما فعله أنه لوح لها من بين المارة بيده وهي معلقة على جدار السرايا ، وخالت له كأنها ترد وتلوح له وتطالبه بفعل شيء ، فتلفت على اليمين وعلى اليسار وفكر جدياً لو يُخبر الناس الذين حوله عن هذه المقلوبة ،

وأنه صاحبها الأصلي ، ويخبرهم عن السرقة والتزوير التي تمت عليها ، وأنها ما كانت مقلوبة ، وحين صار يدعو الناس ليقتربوا منه ويسمعوه جيداً ، تدخلت عناصر الأمن التي كانت تحرس المكان وأبعدته هو ومَن جاءوا ليسمعوه.

لم يمهلوه ليقول الكثير حين قال لهم أنها صاحبته وانه بمقدوره الحديث معها ، وبقدورهم اختباره ، وحين اختبروه وسمحوا له بالحديث معها خاب فعله وضحكوا عليه بالصوت العالي . لم ترد عليه بادئ الأمر ، ثم عاود وكلمها مرات ومرات لكن ردها جاء مخالفاً ومقلوباً ، فأخبرهم انها مقلوبة ولا يمكن إلا أن تجيبه بشكل مقلوب ، وطالبهم لو يسمحوا له بتعديلها ولو لدقائق ليُبرهن على معجزاته في الحديث معها ، لكنهم منعوه من الاقتراب منها وقالوا له إن كان لك يا مسعود معجزات فلتفعل دون الاقتراب منها . وحاول ان يسألها بصوت مسموع لكنها كانت مقلوبة وتجيب وتُعبِّر عن فكرة أخرى ليست فكرته . كرر سؤاله وظلت تجيبه بشكل مقلوب تماماً ، وحاول أن يُذكرها بأيام حلوة عاشتها بصحبته ، لكنها كانت تقول له كلاماً آخر وهم يضحكون عليه بالصوت العالي ، ثم صاروا يدفعونه عنها وهو يُذكرها بنفسه وهم يضحكون ويدفعونه عنها بعيداً ، حتى انتفض غاضباً ثم انسلخ وصار مسعود مخلوقاً مستقلاً بذاته واسمه مسعود بن مسعود.

****

وقف على مسافة من الحرس ومن فكرته المقلوبة . كانت فكرته لكنها ما عادت فكرته ، ولا عاد بوسعها وهي على هذا النحو أن ترشده وتدله على الطريق إن هو ضل الطريق . أخبر رجل كان

يقف على مقربة منه بذلك ، وأخبر رجل آخر كان يمشي قريباً منه ، ونادى على آخرين كان بعضهم يخرج من شارع عمر المختار والبعض الآخر يهم بالدخول للشارع ، فالتأموا حوله ليقول لهم ما يجيش في خاطره ويحزنه ويشعره أنه تم استغفاله يوم عرض فكرته عليهم . لكن الشرطة اقتربت منهم ومنعتهم من الالتفاف حوله واصفة لهم أنه رجل أهبل وغير سوي.

ذهب بعدها إلى شارع الرشيد القريب من مكانه ليترجم احتجاجه إلى عمل ويحجب التزوير عن أنظار المارة إلى أن يتم النظر في موضوعه أمام القاضي . كان في نيته ، لو أتيحت له الفرصة ، رفع شكوى في عملية التزوير ، وتقديم مستندات تثبت أن الفكرة فكرته وليس من حق أي واحد التلاعب بها . كان مسعود على ثقة تامة أن القاضي سوف يحكم لصالحه . معه من الادلة والبراهين ما يُلجمهم ويسكتهم ويدفع القاضي للنطق بالحكم الذي يفيد بوجوب إعادة وضع الخريطة بشكلها الصحيح . قال ذلك في شارع الرشيد ساعة سألوه التجار عما يريد أن يفعل بهذه الكراتين الفارغة التي يجمعها ، وهم يناولونها له وهو يؤكد لهم ، أنه بمقدوره ، لو أتيحت له الفرصة والوقوف أمام أعلى هيئة قضائية في البلاد ليستنطق هذه الخريطة فتقول للقاضي أن مسعوداً صاحبها . استأجر ثلاثة من العمالة الأفريقية ليعينوه على حمل وتوصيل الكراتين حتى الميدان ، في حين تعاطف أكثر التجار مع قضيته وشرعوا في تفريغ بعض بضاعتهم على الأرض ليرفع مسعود أكبر عدد من الكراتين . فالخريطة كبيرة وحجبها عن الانظار يتطلب حاجزاً أكبر.

كان همه يوم أطلع مَن يحرسون المكان على فكرته لو تنتشر

الفكرة بين أكبر عدد من الناس . أطلعهم وطلب منهم هذا في آخر زيارة له لطرابلس قبل شهر ، وأخذ منه الحرس رسم كروكي للفكرة وذهب هو على أمل أن يعود في المرة القادمة أو المرة التي تليها ، ويرى الخريطة حيث أشار لهم عليها ، لكنه وبعد شهر عاد ليجد طلبه مقلوب على رأسه ومنشور على جدار السرايا الحمراء.

أخبر أكثر من واحد في الطريق بين الميدان وشارع الرشيد ، ووقف معهم ليُبيِّن لهم أن الفكرة في الأساس ما كانت بهذا الشكل ، بل كانت على العكس تماماً مما هي عليه الآن ، وأنه ذاهب ليجمع أكبر عدد من كراتين فارغة ليصنع بها حاجزاً مؤقتاً يحجبها عن الأنظار إلى أن ينظر القاضي في الأمر . وأخبر مَن وقف يساعده في شارع الرشيد بهذا العمل . ولم تكن تعنيه سرقة الفكرة ولا حتى نسبتها لواحد آخر وكتابة اسم غير اسمه أسفل منها . المهم عنده رسم ونشر الفكرة بصورتها الصحيحة في أذهان كل مَن يأتي إلى طرابلس ويمر من أمامها ، أو على الأقل عدم نشرها بالأساس.

قبلها أخبر الشرطي أن لا مانع لديه لو نشروا الخريطة بشكلها الذي رسمها لهم على ورقة صغير وكتبوا تحتها أسم أي واحد من أفراد الشرطة الذين يحرسون المكان ، لكن أن يُقلب ما أخذوه منه على رأسه وفوق هذا ينشرونه على الملأ هو أمر لن يقبله ، وسوف يرفع دعوى ضدهم في المحكمة ، وقبل المحكمة سوف يذهب ليصنع حاجزاً يحجبها عن الأنظار قبل أن يمر من أمامها الناس فتنقلب ابصارهم . وأخبره الشرطي أن لا يُتعب نفسه ولا يجلب شيء لأنه لن يسمح له بوضع أي كراتين عليها ، وربما حتى يُشعلون النار في هذه الكراتين ويرمونه هو بطوله في النار ، ولا داعي ليُكلف نفسه

ويخسر اتعاب قضية خاسرة أمام المحاكم ، لأن فكرته في واد وهذه الفكرة في واد آخر ، وحتى لو وقف أمام القاضي فلن يُقنع دليله أحداً، لأن كل الأفكار مشاعة ، وليس من حق أحد أن يحتكر الوحي الذي تبعثه أي فكرة لنفسه بحجة أنه صاحب الفكرة.

كان في غاية الغضب وهو ينظر لفكرته تنظر له وتضحك عليه ساخرة منه . وكان هو أيضاً يشق لها بسمة ساخرة لأنها ما عادت له ، ولا تلك التي وُلدت من رحم خياله ، ولا تلك التي داعبت روحه في الصباح وفي المساء وفي آخر الليل . ولا تلك التي ومضت مرة في رأسه ثم تحولت إلى شيء عظيم لا مكان يليق به كجدار السرايا الحمراء في العاصمة . لم يتصور يوماً أنه يمكن تحويل العروس إلى غولة بضربة يد أو بضربة ضد . ولم يتصور يوماً انه ثمة علاقة بين العروس والغولة.

****

كانت تلك هي الفكرة الأم لـ مسعود التي سوف تتفرع منها عديد الأفكار الصغيرة . أو تلك هي أم افكاره التي لو حدث ونشروها له على السرايا ، كان سينشر هو بنفسه أسفل منها وعلى يمينها وشمالها أفكاراً أخرى صغير متفرعة منها ، لكن قلّبها على رأسها جعله يعيد النظر في الموضوع ، حين امتنع عن كشف ورقة أخرى كان ينوي مناولتها للشرطي وتحديد مكانها على الجدار . خالت له وهو يقف أمامها وهي مقلوبة على السرايا أن عدداً من الأفكار الصغيرة سوف تتفرع منها مقلوبة على رأسها ، وقد يأتي في المرة القادمة إلى الميدان ويطالع من بعيد خرائط صغيرة مقلوبة على يمينها وعلى شمالها . إذ كما استوحى هو عديد الخرائط الصغيرة من

خريطته الكبيرة ، سوف يستوحون هم عديداً آخر مقلوباً على رأسه من خريطتهم الكبيرة المقلوبة على رأسها.

تراجع مسعود عن الشرطي قبل أن يدخل معه في جذل ويذهب منه إلى شارع الرشيد . مشى مسافة تمكنه من النظر بشكل جيد للمشهد ، ووقف هناك عند بداية شارع البلدية المقابل لجدار السرايا . كانت المسافة كافية لتكشف له كيف يمكن أن تتحول الأفكار العظيمة إلى أفكار عطيبة لو قلبت على رأسها . مال على شجرة تقف في مدخل الشارع وطفق يتأمل فعل الضد حين مر من أمامه رجل كان شكله أوربي ، وقبل ان يواصل الرجل سيره ويدخل ويتوغل في الشارع نادى عليه ليأخذ رأيه فيما هو موجود على جدار السرايا . كان مظهره قد شجع مسعوداً على سؤاله بدون حيلة أو حذر ، ثم أن هؤلاء الأوربيين في ظن مسعود قد مروا عبر التاريخ بهكذا اعمال مقلوبة ، واستشارتهم لا شك انها مفيدة وتختصر مسافات . زد على ذلك أن تلك الأقوام يعلمون جيداً خطورة أي ضد قد يحصل على فكرة أم ، وما قد ينتج عنه من تفريعات صغيرة سرعان ما تنتشر بين الناس ، ويغدوا الجميع ضداً ، ويبدو المشهد العام لكل وافد على هذه البلاد أنها بلاد الضد.

وقف الرجل الأوربي في مكانه على الجانب الآخر من الشارع والتفت ورفع يده في إشارة استفهام إلى مسعود عما يريد؟ وتأكد مسعود أن الرجل أجنبي ولا خوف منه ليشير له من مكانه بأن ينظر للفكرة المقلوبة على مبنى السرايا . والتفت لها الرجل بعد ان كان يعطيها ظهره ، ونظر لها للحظات ثم عاود يسأل مسعوداً عما يعني؟ فعاود مسعود مشيراً إلى تلك التي تقف على رأسها . مط الرجل

شفتيه وهز منكبيه وأشار بأصابع يده كأن شيئاً مقلوب على راسه ثم أعطى السرايا ظهره وفات تاركاً مسعوداً وأسئلته ، في إشارة إلى أنه لم يفهم شيئاً ، وحتى لا يريد ان يفهم ، أو حتى غير معني إن كانت تقف على قدميها أو تقف على رأسها . ثم حتى لو وقفت على رأسها لن يقف الرجل على رأسه ، لأنه ما إن ينهي مهمته التي جاءت به إلى هنا حتى يربط حذاءه ويحزم أمتعته ويعود مسرعاً لبلاده تاركاً خلفه شوارعاً قد تمشي على رؤوسها . وبعدها حتى لو صادفته هذه الشوارع في التلفزيون وشاهد مقاطع حية أو مسجلة لشارع يمشي على رأسه وأقدامه بأحذيتها إلى أعلى ، فلن يُكلف نفسه سوى مشاهدة دقيقة ثم ينتقل إلى قنوات اخرى تبثُ من شوارع أخرى . صحيح ان الانتقال من شارع يمشي على رأسه إلى آخر يمشي على قدميه قد يجهد العين لكن هذا الإجهاد لن يدم أكثر من ثوان ، وفي أسوأ الظروف لن يتعدى دقيقة . إذ ما تلبث أن تتعود العين على التأقلم سواء كانت هذه النقلة من المقلوب إلى المعتدل أو العكس ، لأن العين التي خلقها الله بعناية ولطف فائقين قد مدها بخيال واسع يساعدها على تدوير صورة المقلوب.

****

عاد مسعود صوب السرايا وليس في باله سوى لب فكرته الذي سحقوه وصنعوا بدلاً منه لباً آخر . عاد بخطى وئيدة لا تكاد تقدر على المشي ، ومشى في الميدان وهو يطالع أقواس مصرف الأمة العتيدة، ورأى فيها هي الأخرى كانت تصلح لتكون مكاناً لفكرته . فقِدم هذه الأقواس وارتفاعها يؤهلانها لتكون مكاناً مناسباً يرفع فكرته إلى أعلى ، خاصة انه يطل على الميدان ويشكل مع السرايا ضلعا

قائماً، والتفت للخلف حيث اقواس المصرف الآخر الذي يشكل ضلعاً ثالثاً مقابلاً للسرايا ، ومناسباً لخريطته.

تقدم معطياً ظهره لكل هذا ولا شيء في باله سوى صورة مقلوبة لكل هذا ، بما في ذلك مبنى السرايا ، بل ربما هو أول مَن يطاله العمل المقلوب على اعتبار أنه هو أول مَن حمل الفكرة الضد على جداره ، لأن مَن قلَب الخريطة كان يعي تماماً أنه قلَب كل شيء.

تعدى الميدان ووقف بعد أن مشى خطوات في شارع المختار والتفت إلى الحرس الذي قام بسرقة فكرته منه . كان الأخير يراقب خطواته عن بُعد ساعة وقف مسعود وشرع يتوعده بسبابته من مسافة فوق رؤوس المارة ، وكان لسان حاله يقول له أنه حتى وهو ببزته العسكرية لن تسلم من انقلاب على رأسك ما لم تعيد الفكرة لصاحبها أو تنشرها كما أخذتها . حتى أنت ايها العسكري الذي تعلق رتبتك على منكبيك ، وشعار الدولة على جبينك ، سوف يمر عليك يوم لا يظنه مسعود بعيداً وشعار الدولة مكان قدميك وقدميك إلى أعلى مكان شعار الدولة . لم يفهم الحرس شيئاً من إشارة وتوعد مسعود له ، بل حتى لم تتضح الإشارة له إن كانت توعداً أو وداعاً ، لذلك اعتبر ان ما يعنيه مسعود توعداً ووداعاً معاً ، حين رد عليه بإشارة وداع أولاً ثم توعده بإحراقه في نار الكراتين إن هو جاء بها من الرشيد ، وفات مسعود ولا شيء في خياله سوى أن لا أحد سوف ينجو من خريطة تقول بكل وضوح على الجميع أن يتهيأ للوقوف على رؤوسهم ، بما في ذلك مبنى السرايا.

أحرقوه . جاء ومعه الكراتين وما إن شرع في حجب الخريطة عن أنظار المارة ، حتى التف حوله الحرس ، واخذوا منه الكراتين،

وأشعلوا فيها النار ورموه في وسطها . وانتظروها والناس من حولهم تنتظر ، حتى إذا خمدت وصارت رماداً لم يجدوا أي أثر له وسط الرماد . فتشوا كثيراً ، وبددوا الرماد يميناً وشمالاً ولم يجدوا حتى اثر لعظامه.

أكمل مسعود مشواره إلى فندق الواحات الواقع في منصف شارع المختار ولم تبدوا عليه أثار حروق . خرج من بينهم ولم يروه ، وفي الطريق كان يدير وجهه لهم وينظر ثم يواصل سيره ، وفي الطريق ايضاً ما مر بمبنى عال وله إطلالة جميلة إلا وتصوره مكاناً كان يصلح لفكرته التي سُرقت منه . حتى فندق الواحات المطل في جانب منه على الشارع تصورها عليه ، وواجهة مبنى معرض طرابلس هي أيضاً زينت له فكرته وقد لوَّحت للمارة وللسيارات بوجودها فوق مدخل المعرض.

كان وهو يقف من حين لآخر أمام جدار عال يشعر بخيبة امل اعلى من الجدار ، وحتى الفندق الذي يتكون من عشرة طوابق تقريباً شعر وهو يقف أمامه بخيبة أمل تتكون من عشرة طوابق . كان الوقت بعد الغروب حين طلب من موظف الاستقبال أن يجهز له فاتورة المغادرة في الصباح ، وأخذ مفتاح غرفته وطلب منهم عشاء في غرفته ، وركب المصعد ومن شرفة الغرفة القى نظرة على أسطح المدينة وفي داخله خيبة أكبر من المدينة ، ومن الشرفة خالت له طرابلس مقلوبة على رأسها ، بما في ذلك الحدائق والمدارس والمستشفيات ، والعمال والمدرسين والأطباء.

****

في الصباح وفـي طريق عودته إلـى منطقته الواقعة في الجنوب، سوف تتراءى له من زجاج السيارة كل المدن والقرى والوديان والأشجار مقلوبة على رأسها . لن يشاطره أحد من الركاب الرؤية لكن ذلك لم يمنعه من البوح برؤية مقبلة لما قد يحدث . فمَن يدري أن لا يأتي في المرة القادمة إلى طرابلس ويجد محطات الوقود المزروعة على جانبي الطريق وقد انقلبت هي الأخرى وصار عمالها يزودن السيارات بالوقود وهم يقفون على رؤوسهم . وإذا كانت الوديان التي ذابت في السابق ، تسيل وتجري كل شتاء أسفل الطريق من اليمين إلى اليسار ، فإن السيل مهما كان حجمه لن يكون بمنأى عما هو قادم ، يوم يعود أدراجه ، ويدفع مياهه بدلاً من المنبع إلى المصب كما كان يفعل كل عام ، ليعود كأنه نادماً على كل ما فعله في عمره ، دافعاً الماء أمامه معكوساً من المصب على المنبع.

كانت الباص العائدة بهم جنوباً ، قد تأخرت قليلاً عن موعدها في انتظار بقية الركاب الذين حجزوا مقاعداً لهم ، حتى إذا اكتمل عددهم أغلق السائق أبوابها وتحرك بهدوء من ميدان السويحلي الواقع وسط طرابلس ، وبعد حوالي الساعة كانت الباص قد خلفت وراءها جل الأماكن المزدحمة بالمشاة والسيارات ولم يبقى سوى القليل حتى تكون خارج زحمة المدينة.

كان الجو ماطراً وهو يراقب الماء يجري على جانبي الطريق ، ومَن يدري ان لا يعود مسعود في المرة القادمة ويجد مجرى الماء قد غير وجهته . وحين تمهلت الباص بطلب منه سألوه الركاب عن حاجته في هذا الجو ، ولم يُجبهم بشيء سوى أنه يود رؤية السيل الذي قد يعود في المرة القادمة لطرابلس ويجد مياهه تجري إلى أعلى

الشعاب . ولم يُعلق أحد على كلامه حين ظنوه يمزح ، ولم يكف هو عن الكلام ، وعن التأكيد على أنهم سوف يعودون إلى طرابلس في يوم من الأيام ، ليجدوا كأن أحداً قد رفع طرابلس والطريق وجانبي الطريق إلى أعلى ثم اعاد طرابلس والطريق وجانبي الطريق وثبتها بهدوء على رأسها ، في حين اقترب منه طبيب كان يجلس في مقدمة الباص ، لينظر في وضع هذا الذي ماانفك يقول ويرسم صورة مقلوبة لكل شيء يصادفهم في الطريق . خال للطبيب كأن الرجل انقلب على رأسه وصار يرى الأشياء مقلوبة.

جاء الطبيب من الأمام واستأذن منه وبهدوء وجلس إلى جانبه وهو ينظر في عيني مسعود لعل نظراته تشيئ بما هو مقلوب في داخله . وحين لم يظهر عليه شيء مقلوب استأذن الطبيب وطلب بلطف لو يجري له فحص ، ولم يمانع مسعود الذي عرف مغزى الطبيب من الكشف ، لكنه اشترط عليه أن يقوم بعد ذلك بفحص نفسه أو أي راكب آخر معهم في السيارة ، ولم يمانع الطبيب الذي اكتشف فيما بعد أن ما يُلمح له مسعود ربما فيه شيء من الحقيقة ، وإن عامل محطة الوقود الذي زودهم بالبنزين قد يجدونه في المرة القادمة ينتظرهم في المحطة وفي يده مسدس وخرطوم الوقود وقدميه إلى أعلى ورأسه إلى أسفل . أعاد الطبيب سماعته إلى حقيبته وغرق في صمت عميق ، حتى ظنوه بعض الركاب الذين كانوا يشاهدون عملية الفحص ، أنه عثر على شيء غامض ومحير ، إلى الحد الذي يستوجب معه الصمت والغوص في داخله وتفكيك لغزه.

كان السائق الذي طفق يتابع عملية الفحص عبر مرآته الداخلية ، قد حذر مسعود ساخراً منه بأنه عليه أن لا يُفاجأ إن حدث واكتشف

الطبيب قلبه وقد انتقل وصار يدق في الجهة اليمنى من الصدر ، عندها يستوجب على مسعود الاستعداد ليكون أول المنقلبين على رؤوسهم ، وأن عليه أول مَن يتحسس قدمه في داخل حذائها ، ويمسح على رأسه واعداً إياه بمستقبل واعد على الرصيف . وسمع مسعود تحذير السائق له ، وسمع حتى ضحكات الركاب عليه ، في حين ضحك مسعود عليهم في سره واعداً إياهم بنصف دورة تساوي 180 درجة.

****

في الوقت التي جلس فيه الطبيب بمحاذاته وطلب منه أن يرفع كُمه للفحص ، كانت قد أخذت مسعوداً مشهد سيارة تقف على عجلاتها في الوقت الذي كان يظهر كل شيء أمام عينه مقلوباً . لا شيء ظهر له من زجاج السيارة مستوياً ويقف بشكل طبيعي سوى هذه السيارة ، حتى الطائرة التي عبرت الأجواء أمامهم قبل دقائق كانت قد مرت من أمام عينه مقلوبة ، في حين وقفت تلك السيارة فجأة على جانب الطريق في وضع طبيعي كأنها غير معنية بأي انقلاب . لم يجد مسعود تفسيراً مقنعاً للصورة ، ولم تُفسر له عينه هذا الاستثناء الذي تحظى به السيارة دون غيرها . أعاد كُم قميصه وأشار إلى الطبيب لو ينتظر قليلاً ليتيح له فرصة النظر جيداً في هذا الأمر . فأن تُستثنى سيارة من دون كل السيارات لتقف على عجلاتها في حين أن البقية مقلوبة هو أمر يدعو للدهشة ، ولم يُدهش كلامه الطبيب وهو يرفع له كُمه وحسب بل حتى حس بالشفقة عليه.

لم يكن بوسع مسعود أن يقف من مقعده وينزل ويقترب من السيارة الخارقة للعادة ، وما كان السائق ليقف له حتى لو صرخ

مسعود وملأ السيارة صراخاً . لكن مكانها الذي تقف فيه على عجلاتها كان في وادي صغير يقطع الطريق عبر نفق ، وكان الوادي قد أتلف في وقت مضى بعضاً من الطريق ، مما أجبر السائق على تخفيض سرعته والتمهل على كمرة الوادي ، والتحايل بمقوده يميناً وشمالاً حتى يتجاوز المكان المجروف . هذا التمهل هو الذي مكَّن مسعوداً من معرفة السر الذي استثنى السيارة ، وأظهرها في عينه التي ينظر بها تقف على قدميها دون غيرها من السيارات . إذ في اللحظة التي همَّ فيها مسعود ليطلب من السائق بالتمهل ولو قليلاً شعر بمكبح السيارة يُجبرها على التريث ويمنحه فرصة استطلاع ، فنظر إلى الأمام حيث اثار الخراب الذي جرف بعضاً من القطران جراء سيلان الوادي على مدار الفصول ، حين تمهل السائق وتحايل على اليمين وعلى الشمال حتى تعدى الجزء المعطوب ، ليضاعف بعدها سرعته في محاولة لتعويض الدقائق التي خسرها جراء تخفيض السرعة . في هذه الدقائق تمكن مسعود من معاينة السيارة جيداً ، وإجراء عملية إعادة تدوير لشكلها بما يتناسب وحال البقية ، ليُدرك بعدها القاعدة التي بموجبها استثنيت وظهرت مستوية دون غيرها.

لكن الذي أخاف مسعوداً هو الحالة التي سوف تؤول لها كل السيارات في البلاد يوم يكون كل شيء قد اخذ ضده ، وتكون خريطته المقلوبة على جدار السرايا قد اخذت وقتها الكافي ، وفعلت فعلها الوافي ، وصارت أمراً طبيعياً جداً في الناس وممتلكاتهم . والذي أحزن مسعوداً أكثر ليس صورة السيارة الملقاة في عرض الوادي إثر حادث سير ، بل كيف سيصل الأمر حتى يروا الناس كل سيارة تعرضت لحادث سير وانقلبت وألقيت خارج الطريق كأنها

سيارة خرجت ووقفت على جانب الطريق . ومَن يدري يومها أنهم ما إن يستلموا سيارتهم الواردة من الخارج على أرض ميناء طرابلس ، حتى يشرعوا في تدويرها بلطف لتأخذ الضد الذي يوائم الحياة والشارع خارج الميناء . لا شك يومها الميناء سوف يكون في حاجة لعمالة إضافية ومتخصصة تقوم بهذا العمل ، لأن مثل هذا الإجراء يستلزم حرفية وخبرة ، حتى إذا أخذت السيارات الجديدة ضدها التي سوف تستمر به إلى آخر يوم في عمرها ، خرجت لتجد رجل المرور عند جزيرة الميناء واقفاً على رأسه في انتظارها ، فيمد ذراعه معترضاً مرور كل السيارات في الشارع لتقف مكانها ، مؤذناً بذلك للسيارات الجديدة الوافدة لتوها أن تدخل البلاد ، وتسير في شوارعها حيث تشاء.

****

أمرٌ لم يُحزن مسعوداً وحسب بل حتى الطبيب وآخرون معه . تعدى السائق كمرة الوادي وفاتت الباص بهم في حين ظل مسعود يلوي رقبته ويلاحق ما تبقى من مشهد السيارة في عرض الوادي ، ثم وهو يعود ويشمر كمه للطبيب سأله كيف رأى شكل تلك السيارة ، وحين أجابه الطبيب أنها مقلوبة في حادث سير اعتدل على ظهر كرسيه ومد له ذراعه ليُجري له الفحص ، في حين علق الطبيب سماعته على أذنه ورفع الكُم أكثر ولف عليه جهازه وأحكمه جيداً ، ثم شرع ينفخه ويحسب ، وبعد دقيقة فك الربطة ليسأله مسعود عما وجد في داخله ، لكن الطبيب لم يجب بشيء ساعة دس صناتته تفتش في الصدر عن دقات مسعود الذي كان على ثقة أن الطبيب هو الذي في حاجة ماسة للكشف.

أخبره أن ما تبحث عنه ربما يكون موجوداً في داخلك ، أو داخل راكب آخر من ركاب هذه الباص ، وإن هذه الصناتة لو سحبتها من صدري ووضعتها على صدر راكب آخر لاكتشفت أن قلبه ما عاد يدق على الجهة اليسرى ، بل انتقل ليدق على الجهة المقابلة ، وأنه أيها الطبيب إذا كانت كبدتي أنا ما زالت موجود ومفلطحة على هذه الجهة فإن كبد غيري ربما تكون قد أخذت الجهة الثانية وتبادلت مكانها مع المعدة.

لم يرد الطبيب على كلامه ، بل كانت يده تفتش وتتحسس أماكن عدة لعلها تعثر على شيء يفيد ان مسعوداً مقلوباً من الداخل ، فالعين التي يرى بها الأشياء في الخارج مقلوبة تماماً حتى لو لم يفحصها الطبيب ويتأكد من ذلك ، وانقلاب مثل هذا ما كان ليحصل لو لم يتم قبله انقلاب في باطنه ، وما يراه مسعود هو نتيجة لابد ان تتبين أسبابها . لذلك لم تترك يد الطبيب شيئاً إلا وجست أصابعه مكانه ليتحقق إن كان قد تم تغييره ونقله إلى مكان آخر جديد وجلب عضو أو قطعة من مكان آخر بدلاً منه ، إذ ما كان مسعود لينظر إلى اليمين يساراً والسفلي علوياً والعكس صحيحاً ، لو لم يتبدل في داخله اليمين باليسار والسفلي بالعلوي ، لتتبدى أمامه الأشياء مطابقة لما وقع في داخله . والحقيقة أن مسعوداً لم يمانع أو يعترض يد الطبيب التي تعمل على كل جانب من صدره وبطنه ، بل أنه سهَّل له العملية ساعة شرع يدور له بجسده كما يطلب ، والحقيقة الأخرى التي لا ينبغي إغفالها هي ان مسعوداً كان يعلق من حين لآخر ساخراً من الطبيب ، وواصفاً إياه أنه هو أو غيره الذي يستلزم فحصهم والكشف عن باطنهم ، خاصة بعد أن عرف مسعود أن الطبيب وقف في الميدان

ونظر ملياً في الخريطة طويلاً على جدار السرايا.

لم يأخذ الفحص وقتاً يذكر حين لم يعثر على شيء جديد سوى أن داخلية مسعود مازالت في مكانها ، ولم يطالها أي تغيير ، بما في ذلك الكبد والمعدة والقلب والشرايين والأوردة . وكل شيء يمكن تحسُسُه باليد تحسَسَه الطبيب ووجده في مكانه ، مما يشير إلى أن الانقلاب إن وُجد فهو فقط في عيني مسعود . ليسحب على إثرها الطبيب يده وخيوط صناتته من على بطن مسعود ويرفع بصره ليتفقد عينيه من جديد . وهناك وجد العلة حين بدت أمامه وبوضوح عينيّ مسعود المقلوبتين بدرجة 180 ، وزاويتها اليمنى في مكان اليسرى والعكس صحيحاً . وما كانت الأشياء في الخارج لتنقلب داخل رأس مسعود لو لم تنقلها له عينه مقلوبة . ربت على كتفه ، وأخبره أنه عرف الداء ، وأن عليك يا مسعود عرض نفسك على أخصائي عيون ليعيد تدوير عينيك وتثبيتهما في المكان الأول ، وعندها يمكنك أن ترى كما ترى الناس ، وتستمتع بمناظر الأشياء كما تستمتع الناس ، أما بقائك على هذا النحو - أضاف الطبيب - هو أمر سيجبرك في يوم من الأيام أن تقف وتمشي على رأسك ، حتى تتمكن من رؤية الأشياء مستوية . وعندها لا يمكنك العيش بين الناس والبيع والشراء والتعامل معهم ، لأنك تقف وتمشي على رأسك وهم يقفون ويمشون على أقدامهم ، ولا سبيل لتبادل البضائع والحاجيات معهم ، فيدك التي سوف تعطي أو تأخذ بها موجودة في الأسفل ، وأيديهم موجودة فوق ، وأي اخذ وعطاء بينكما سوف يحتاج لجهد منك أو منهم ، وإن تم هذا الجهد في الأيام الأولى فلن يستمر طويلاً . بل حتى مشاركتك لهم مناسباتهم الاجتماعية سوف تسبب لك الحرج حين تجد صعوبة بالغة

في مصافحتهم وعناقهم ، اللهم إذا انقلبوا هم مثلك وصاروا جميعهم يمشون على رؤوسهم . ولو حصل هذا ، وانقلبوا هُم وبقيت أنت على قدميك كم تدعي الآن ، بحجة أن لك رأي مختلف في شكل الخريطة على الجدار ، وانقلب الجميع مع الخريطة على رؤوسهم ، فهذا يعني ان المشكلة باقية ولو بشكل معكوس ، يوم يقفون هم ويمشون ويبيعون ويشترون ويتعاملون من أسفل وهم على رؤوسهم ، لتبقى أنت ومَن في حكمك حائرين تفكرون في وسيلة تمكنكم من التعامل بشكل أسهل مع هؤلاء المقلوبين ، والذين يشكلون أغلبية المجتمع.

استمع مسعود لكل نصائح الطبيب ، وانتظره حتى أكمل ، وحين شرع الطبيب يعيد معداته إلى حقيبته ، طلب منه لو يفحص نفسه إن هو بالفعل وقف في الميدان قبل يومين ونظر للخريطة ملياً ، إذ ليس لـ مسعود شك إن الطبيب الذي وقف أمام الضد على جدار السرايا قد يكون من أوائل المقلوبين ، ما لم يستدرك نفسه ، ويعيد ترتيب افكاره التي قد تكون بدأت بالانقلاب.

****

كان طفل برفقة أمه يركض ويلعب في الممر الذي يفصل الكراسي منذ أن تحركت الباص من المحطة ، وكان هذا الطفل قد شارك بشكل او بآخر في عملية الفحص التي أجراها الطبيب على مسعود ، حين وقف على جانبهما ينظر في سماعة الطبيب وما قد يقوم بها ، ومد يده يدغدغ ذراع مسعود المكشوف ، واستعان به الطبيب في تثنيت ونقل الصناتة من مكان لآخر ، ثم وساعة نزل فحص الطبيب إلى اسفل نزل معه يفتش بطن مسعود . كان مواكب لكل مجريات الكشف، حتى انه ممد خيوط السماعة لتصل مكان الزائدة الدودية بناء على

طلب الطبيب ، في حين ظل مسعود يلاطفه بين حين وآخر ، فهو جاره الذي يجلس مع أمه على الجهة اليمنى والتي عرف فيما بعد أن اسمها « ليلي» ، ولا يفصل بينهما سوى الممر ، لكن الطفل ماانفك يضحك خاصة ساعة وصل الفحص بطن مسعود ، ليركب الطفل على ركبتيه تنفيذاً لأوامر الطبيب المشغول في ما كان يظنه موجوداً.

هذا الطفل ، هو أول مَن أشار إلى الطبيب على عيني مسعود ، حين حدق فيهما جيداً ليكتشف الاختلاف بينه وبين عيون الناس . ولم يهتم الطبيب الذي ظل منهمكاً ينصت لعله يلتقط إشارة أو دقة من أعماق مسعود ، أو يكتشف صوتاً في غير مكانه . وظل الطفل طيلة عملية الكشف يعيد على الطبيب ويطلب منه أن يترك عنه ويهتم بنظرات مسعود المقلوبة ، والتي ربما هي مَن زينت له صورة السيارة المرمية في عرض الوادي.

كان طفلها أكثر نباهة وفطنة منهم حين أخذته أمه من يده وسحبته نحوها ليترك الطبيب يعمل براحته ، لكن الأخير أبقاه معه ، ليساعده ويسليه . مسعود ايضاً كان مرتاح لحركة ودغدغت الطفل وضحكاته التي ماانفك يبعثها في وجوههم ، خاصة بعد ان صار يركز نظره في عيون مسعود متسائلاً عن السبب . ولم يترك مسعود الطفل في حيرته بل فسر له ما يراه في عينيه ، وأنه بوسعه أن يعيدهما لوضعهما السابق ، لكنه ما زال في حاجة لرؤية فاحصة لمقبل الأيام وما قد ينجم عن فعل الضد على السرايا الحمراء.

لم يفهم الطفل هذا الكلام الكبير ولم يصدقه الطبيب حين شرع مسعود يُبسط الفكرة ، بأن ما يقوم به الطبيب هو في اساسه صحيحاً ، لكنه في مكانه الخطأ ، إذ لو هذا الطبيب أجرى كشفه على أي

واحد من الركاب كان وما زال مأخوذاً بما حدث على السرايا لوجد شراييه تجري على الجهة اليمنى من الجسد ، لكن مَن لم تأخذه المقلوبة لا يمكن إلا ان يظل وقلبه يدق في الجهة اليسرى وشراييه تجري حيثُ يدق قلبه . الانقلاب الذي يبحث عنه الطبيب هو تمهيد لما تراه عيني - قال مسعود للطفل - وليس لما تراه انت على عيني ، وسوف لن يجد طبيبنا صعوبة في العثور عليه في بطن أخرى غدى قلبها قلباً آخر ولبها لباً آخر.

كانت أم الطفل تستمع لما كان مسعود يرويه لطفلها ، وكان مسعود يزداد وسامة في عينيها الجميلتين ، وكان ذلك يبعث في مسعود إحساساً بالسعادة.

****

رسم له على ورقة صغيرة رجل مقلوب على رأسه ، وكتب أسفل منها «صورة لك ايها الطبيب ما لم تستدرك نفسك وتعيد ترتيب أفكارك» ، ابتسم الطبيب في وجه مسعود ونهض ليعود إلى مقعده . كان مسعود يعي تماماً أن أي تبديل لابد أن يبدأ من الداخل ، وأي عودة لابد أن تبدأ هي الأخرى من الداخل ، وأي ثبات وتماسك في مواجهة الضد الذي يعمل على التبديل لابد أن تتم في الداخل . لا شيء في الخارج أو الظاهر الذي تراه العين . لذلك وبعد أن همَّ الطبيب بالنهوض من مكانه ليعود من حيث أتى ، طلب منه مسعود ورقة صغيرة وقلم ، ولم يمانع الطبيب حين سحبها من حقيبته وناولها له ، ولم يتأخر مسعود بل بسرعة رسم الرجل المقلوب وأضاف أسفل الرسم عبارة «التبديل يبدأ من الداخل».

أخذها منه ووضع سير حقيبته على كتفه ومشى عائداً إلى

كرسيه وهو يرفع الورقة أمام عينيه . كان الرجل المقلوب عليها يقف على راحة يديه ، ويظهر أنه يهم بالمشي ، حين بدت ذراعه اليمنى وقد امتدت لتخطو إلى الأمام ، ولوحت قدمه اليسرى ساقها إلى الأمام في حركة آلية كان في وقت مضي يقوم بها الذراع لمساعدة الساق . تبادل مزدوج بين الساق والـذراع في المهمة ، ولم تكن المهمة صعبة بل هي ذاتها وكل ما تغير هو الوضع فقط ، لذلك لا يتصور مسعود أن التبديل على الظاهر سوف يلاقي صعوبة ، لكن الصعوبة إن حدثت سوف تحدث في الداخل ، وإذا ما تمكن الضد من قلب الموازين في الداخل سوف يكون ظهورها على البدن تحصيل حاصل.

لم يجد الطبيب صعوبة في فهم هذا الذي قد يمارسه البدن بسهولة ، حين بدت خطوة الرجل المقلوب على الورقة سهلة ، وتلقائية ، وغير متعثرة ، بل ظهرت كأن يدا وقدما المقلوب قد شُكلت من بطن أمه لهذا الغرض ، مما افزع الطبيب وهو يجلس على مقعده.

كان معه رجل يجلس إلى جانبه حين شاركه رؤية الرسم المقلوب على رأسه . أعطاه الورقة وطلب منه مطالعتها جيداً ، ثم إبداء رأيه فيها . والحقيقة أن الرجل ما كان في حاجة للتحديق جيداً حتى يبدي رأيه ، بل كان إعجابه كبيراً بالرسم الذي اختصر الزمن حين قال ذلك بكل صراحة ، وأثنى على صاحب هذا العمل الذي ربما يملك رؤية ثاقبة لا يملكها غيره ، وليس هذا فحسب بل نهض الرجل من مكانه ، ووقف بين المقاعد ووضع يديه على ارضية الممر وانقلب على رأسه.

أجرى أكثر من محاولة للوقوف على رأسه ، لكن معظم

محاولاته لم تكن موفقة بالقدر الكافي . كان في حاجة لبعض الوقت، حسب ما قال له مسعود وهو ينظر له ويتابع محاولاته المتكررة . كانت أكثر محاولة نجاحاً هي تلك التي وقف فيها ومشى خطوات على رأسه تجاوز بها مكان مسعود ، مما دعى الأخير أن ينصحه بخطورة ما يقوم به ، لأنها بادرة خطيرة ، ولو شاعت بين الناس عندها سوف تضطر الدولة لإنشاء مصانع جديدة للأحذية وحتى للجوارب ، وهذه المصانع سوف لن تقوم ما لم يكن في داخلها مصممين جدد ، غير أولئك القدامى الذين مافتئوا يصممون أحذية على هيئة أقدام.

كان الطبيب في دهشة لم يستطع ان يصدق ما يرى ، وحين شرع مسعود ينصح الرجل ، شرع الطبيب في فتح حقيبته ، وسحب أدواته منها ليقوم بكشف كامل على الرجل المقلوب ، أو الرجل الذي بدأ قبل غيره يستحلي الانقلاب على الرأس . وإذا كان ما كتبه مسعود صحيحاً ، حين اشار إلى البداية من الداخل ، فهذا الرجل لا شك أنه اكتمل داخلياً وطفقت الأعمال تضع لمساتها الأخيرة على مظهره الخارجي.

كان شيئاً فظيعاً يدور في خُلد الطبيب ، وهو يستعد ليكشف على الرجل ويتصور عالماً من البشر يصعدون الباص في يوم من الأيام على رؤوسهم ، في حين كان الرجل يشمر له عن ذراعه ويؤكد له انه في حالة صحية جيدة جداً ، وأنه لا يشعر بشيء سوى برغبة أن يُجرب المشي على ذراعيه وساقيه إلى أعلى ، لأن المشي بهذا الشكل يعطي الحياة مذاقاً جديداً ومختلفاً عما نعيشه . وكان كلامه لا يزعج الطبيب وحسب بل دفعه لسد أذنيه بقطعتين صغيرتين من قطن كان موجود في الحقيبة . وحين اكتشف الطبيب بسرعة وبوضوح

أن شرايين الرجل تضخ الدم وتجري به من جهة اليمين ، وأوردته من جهة اليسار ، وقلبه يدق على الناحية الأخرى ، والكبد والمعدة قد تبادلا المواضع ، ولم يبقى فيه سوى عينيه اللآتين سوف يأتي دورهما في موعده ، أدرك أن الرجل قد انتهى ولا سبيل لعودته حتى لو سيق إلى أفضل المصحات في العالم . بل أن هذا الشقلبان الذي سوف يقوم به الرجل عما قريب ، ويأخذ شكلاً ووضعاً طبيعياً وسهلاً إثناء الحركة ، ليس من السهل إجراء عملية مقلبان له ليعود إلى وضعه الأول ، فالعملية معقدة جداً ، ومقلبانها سوف يكون أكثر تعقيداً ، وإذا كانت عملية الشقلبان تقوم بتدوير البني آدم نصف دورة، ومن تم يقف على رأسه ، فإن المقلبان هي عملية تكميلية للشقلبان يقوم بتكملة الدورة حتى يعود هذا البني آدم ليقف على قدميه . هاتان العمليتنا معقدتان جداً ويتطلب إتمام الثانية وقتاً أكثر من ضعف الأولى ، ذلك أن المقلبان التي سوف تعيد البني آدم إلى وضعه الطبيعي ، أصعب وفي حاجة إلى عمل دقيق يعيد بناء البني آدم من جديد بعد أن طرحه الشقلبان.

****

في منطقة مسعود ومسقط رأسه والذي يقع بعيداً عن طرابلس، جاء مَن جاء ورفع الخريطة على جدار المدرسة القريبة من بيتهم . كان فريق يتكون من ستة أشخاص . وصلوا جميعهم في سيارة واحدة تحمل لوحة تابعة لمكتب التعليم في الناحية ، واستأذنوا إدارة المدرسة ، وأبلغوها أن ما سوف يقومون به هو من أفكار ابن هذه المنطقة ، وإن الفكرة سوف تعمم على جميع المدارس والميادين والساحات ، ذلك أنها جديرة بالتعميم . ولم يأخذ منهم تسلق الجدار

وتعليق الفكرة عليه وقتاً ، إذ ما هي إلا دقائق حتى ظهر امام الجميع شكل الخريطة المقلوب على الجدار ، وصار الجميع يقف ويتأمل الفكرة ويتساءل عن الغاية والمغزى منها . وحين اشيع في المنطقة أن صاحب الفكرة هو مسعود ، اتصلوا به.

أخبرهم أحد أعضاء الفريق المكلف أن نشر الفكرة وتوزيعها سوف يتم على كل المدارس أولاً ، ثم بعد ذلك على كل الساحات والميادين والحدائق ، ثم بعد ذلك على كل المكاتب والمباني العامة ، وتعطى مجاناً لكل مَن يرغب في تعليقها داخل بيته . وأخبرهم عضو من هذا الفريق أن صاحب الفكرة يدعى مسعود ، لذلك كان أول مكان بعد جدار السرايا تُرفع عليه الخريطة المقلوبة هو هذه المدرسة التي قرأ فيها صاحب الفكرة ، حتى أنهم سألوا عنه وتمنوا لو كان موجوداً ، ويشاهد بأم عينه فكرته وكيف خرجت إلى الملأ ، لكنهم عرفوا من أقاربه أنه غير موجود ، وأنه ذهب إلى طرابلس يراجع عملاً له هناك دون أن يعلم أنه لا داعي للتعب والسفر بعيداً لمراجعة عمله . فالأفكار الكبير تطير لوحدها وتبلغ مسافات لا يبلغها حتى أصحبها ، تماماً كما تعيش عمراً لا يعيشه أصحبها.

حاولوا ذويه وأصدقاءه الاتصال به ليستفسروا منه عن فكرته ، التي وصفها ناشروها أنها من أعظم الأفكار وأكثرها تأثيراً . بل أن قائد الفريق المكلف بنشر الفكرة ، كاد ان يُقسم ان فعل هذه الخريطة المقلوبة على رأسها سوف يقوم بتغير كل شيء . وحين سأله احد المارة الذي لفته المنظر مازحاً إن كانت هذه الفكرة سوف تغير حتى شكل الأشجار ، لم يتأخر قائد الفريق في تأكيد ذلك ، مشيراً إلى أن تلك الأشجار التي ترونها تقف اليوم في فناء المدرسة،

سوف ترونها أنتم والتلاميذ معكم بعد وقت لا يظنه بعيداً بشكل آخر مختلف تماماً عما هي عليه . وحين سأله أحد المدرسين إن كان فعل هذه الخريطة المقلوبة على رأسها سوف يطال حتى جدار المدرسة ويقلبه على رأسه ، أيضاً لم يتردد في تأكيد انه ليس جدار المدرسة وحسب بل كل الجدران المحيطة بالمدرسة ، ثم ما يلبث أن ينتقل إلى الجدران الغير محيطة ، في انتقال تدريجي وأحياناً سريع حسب رغبة هذه الجدران في قبول وتقبل الفكرة . ثم أكد لهم قائد الفريق وهو يدق آخر مسمار على الخريطة ، أن قبول صورة جدار أو شجرة تقف على رأسها ، حتى وإن بدى في أول الأمر غير مستساغ لكنه سرعان تسري جماليته على العيون ، وشيئاً فشيئاً حتى يغدوا مستساغاً ومنظراً يُشكل ذائقة الجميع.

لم يشعر مسعود بالحزن وحسب ساعة وصله نبأ الفريق العامل على جدار المدرسة ، بل شعر بحجم الجريمة التي ارتكبها هو في حق هؤلاء المساكين ، الذي سوف يألفون يوماً أشياء ومناظر حتى ما يعودون يقبلون سواها.

وصله الخبر وهو في الطريق إلى الميدان ، حين دخل مكتب بريد قريب منه واتصل ببيتهم ليسألهم عن حالهم وأحوالهم ، فأعلموه بمن جاء صباح ذلك اليوم ونشروا فكرته على الجدار ، وكم تمنى في تلك اللحظة لو لم يدخل البريد ، ولم يجري أي اتصال ، ولو أنه واصل طريقه دون علمه بشيء ، ليرى ويسأل الحرس إن كانوا قد نقلوا فكرته كما هي إلى الجهات العليا ، أو انقلبت منهم في الطريق أو قلبوها قصداً ، وإن كانت تلك الجهات تطلب أي إيضاح على الفكرة أو تريد منه المساعدة.؟ لكن الهاتف الذي اتصل منه ببيتهم قد

اختصر المسافة التي تفصله عن الميدان ، ليعرف مسبقاً أن فكرته مقلوبة على رأسها في الميدان . وأياً يكن هذا الهاتف يظل كلام من أخته الصغيرة التي قد لا تعرف ماذا تقول ، أو ماذا تنقل من كلام سمعته ، بل مَن يدري أن هذا الفريق المكلف ما اختار المدرسة القريبة من بيتهم ، إلا ليسألوه إن كان ما يقصده بفكرة الخريطة هو هذا المعنى ، أم هو معنى ثانٍ مختلف ، وبالتالي يمكن تعديلها أو تغييرها بالكامل . كان مجيئ الفريق إلى هذه المدرسة دون غيرها ، وأنه سوف يأتي لبقية المدارس فيما بعد أشاع في نفس مسعود بعض الطمأنينة ، وجعله يسرع الخطى ليقطع الشك باليقين ، حين يقف مع الحرس في الميدان ويعرف منهم ما يريحه ، أو يرى الطامة الكبرى وقد علقوها على جدار السرايا كما قالت له أخته الصغيرة.

****

أسرع مسعود إلى جدار السرايا ، وهو لا يجهل أنه بوسع أياً كان ان يقلب أية خريطة أو أي مجسم للكرة الأرضية على طاولة مكتبه، ويثبتها على رأسها ويقول لمن معه في المكتب هكذا وُجدت الكرة في هذا الكون . لا شيء ينفي هكذا حقيقة وأيضاً لا شيء ينفي حقيقة وضع مجسمها كما هو معروف اليوم . سواء كان القطب الشمالي للمجسم فوق والجنوبي تحت أو العكس لن يغير في أمر الكرة شيئاً.

هذا الافتراض الذي وضعوه أوائل علماء الجغرافيا في العالم ، ليس محكوماً إلا بالجهة التي تأتي منها الشمس ، أي الجهة التي تمضي نحوها الأرض لتدور حول نفسها وحول الشمس ، أما ما هو موجود في أعلى الخريطة وما هو موجود في اسفلها هو افتراض لا يحكمه ثابت موجود في هذا الكون ليقول لنا أن السماء التي تعلو

القطب الشمالي هي فوق والسماء التي تعلو القطب الجنوبي هي تحت . لذلك كانت مسألة الفوق والتحت هي افتراض يخشى مسعود أن تنسف فكرته من اساسها إذا حصل واكتشف ضده هذه الحقيقة، فيقلبها متكئاً هذا الضد على مسألة الفوق والتحت وأنهما وهّم لا اساس له.

ومن قبل أن يتخلص من زحمة الناس في شارع عمر المختار شاهد خريطته على رأسها . مط طوله من على رؤوس المارة ورأى بما لا يدع مجالاً للشك أن البحر الأبيض المتوسط والذي كان يحد الخريطة من فوق صار يحدها من تحت ، ودول الصحراء التي كانت تحدها من تحت باتت تحدها من فوق.

وقف وتجمد في مكانه لدقائق ، ثم جثى على ركبتيه فوق الرصيف وسط المارة الذين صاروا يتنحون عنه ، في حين قدم بعضهم له المساعدة ، ومنهم مَن أوقف سيارته ساعة رآه جالساً وحوله بعض الناس وعرض عليه الركوب ، لكن مسعود اشار لهم جميعهم أن يتركوه ، ليتنحى لوحده إلى جدار الشارع ويسند ظهره عليه لبعض الوقت ، وبعد أقل من عشرة دقائق منذ أن شاهد فكرته على رأسها ذهب ووقف عندها.

كان في البداية يود العودة عنها ، لم تكن لديه شجاعة كافية ليقف في مواجهة خريطته وقد قُلبت على رأسها ، دون أن يمد يده لها ويعيدها لتقف على قدميها . كان شعوراً كبيراً بالخيبة ينزع روحه، وهو عاجز عن فعل شيء لفكرته التي خالت له في حينها ، كأنها تستنجد به وهي معلقة من قدميها ولا يستطيع أن يمد لها يد العون.

قالوا له الحرس هاتِ ما يفيد أن هذا الوضع للخريطة هو وضع خاطئ علمياً ، أما أن تأتي يا سي مسعود لتقول كلام غير علمي

وتطلب منا تنفيذه على جدار السرايا التي هي ملك لكل الليبيين فهذا لن نفعله . لم يجادلهم كثيراً لكنه وقف كثيراً أمامها حتى شعر بدمعة كبيرة تسح منه وتقع على الأرض . كانت دمعة كبيرة وحتى مقلوبة ساعة شعر بها تتدحرج على خده . تركها ولم يلمسها بيده ، قال في نفسه أنها انقلبت مع مشهد الخريطة . وكانت أكثر ملوحة من غيره، وكان وقع ارتطامها على الأرض كوقع الفاجعة التي حركتها من محجرها.

قال في نفسه انما الاعمال بالنيات ، وإذا استغلت فكرته وقُلبت على رأسها فالذنب ليس ذنبه ، ولو كان كل مَن معه فكرة حجبها ولم يبح بها خشية أن تُقلب على رأسها بكلام حق أُريد به باطل ، لما باح أحد بفكرة ، ولما تطورت البشرية عبر هذه الرحلة الطويلة التي أطلقها آدم عليه السلام . لذلك من حق أصحاب الأفكار العظيمة أن يُطلقوها على الملأ دون الخشية من ضدها ، لأن ضدها حتماً لن يدوم ، فظاهر الخريطة حتى وإن بدى لا توابث تحكمه من فوق وتحت مع هذا الكون ، لكن وسطها محكوم بثوابت وامتدادات كونية من نوع آخر مع هذا الوجود ، وليس بمقدور أي ضد أن يقلبها.

****

كنتُ أنا راوي هذه القصة أجلس في المقعد الخلفي للباص ، وكان يجب أن أقول منذ البداية أن علاقة نوعية ومختلفة تماماً عن كل علاقات البشر تربطني بـ مسعود ، لكنني تأخرتُ أو تريثُ لأنني في الواقع لم أتحسس هذه العلاقة جيداً إلا ونحن نصعد الباص ، لذلك سأعود قليلاً لبداية وجود مسعود كفرد مستقل ، أو حتى أعود لما قبل استقلاليته عني بقليل عساي أفكك وأبسط شكل الانتماء الذي كان وما

زال يربطه بي.

كنا معاً في الميدان نشاهد الخريطة المقلوبة ، لكنني لم انتبه له ، وما كنتُ في تلك الساعة أتصور أن هناك مَن يشاطرني الرأي في أمر الخريطة ، وما كنتُ أحسب وأنا أجادل الحرس وأطلب منهم لو يمنحوني فرصة لإظهار معجزتي والحديث مع خريطتي أن هناك واحداً آخر يجادل معي ، ويعتبر الخريطة خريطته والفكرة فكرته.

لم أتعرف على مسعود بشكله الحالي حتى ذلك الوقت ، وإلا على الأقل تشاورنا في الرأي ، إذ مَن يدري أن لا تتمخض مشورتنا بفكرة تجهض فعل الضد على جدار السرايا . كانت زحمة المارة في الميدان كثيرة ، ولا سبيل لتفحصهم لأجد من بينهم مَن يشبهني شكلاً ومضموناً إلى هذا الحد . وحتى لو كنتُ أعلم بوجوده بين هؤلاء المارة لا يمكن العثور عليه في الزحام.

صباحاً وفي محطة سيارات الأجرة كان أول لقاء بيننا . لم أكلمه ولم يكلمني لكن شبهه الكبير بي هو أول مَن لفتني له ، وشعور كبير برؤية مَن يشبهني في المحطة قد اعتراني من قبل أن أراه . كنتُ قد وصلتُ قبله ، ووضعتُ حقيبتي في صندوق الباص وجلستُ خارجها أنفتُ سيجارتي حين شعرتُ به . لم يراودني مثل هذا الشعور من قبل ، لكنه داهمني فجأة ودون مقدمات . أحسستُ بشيء لم أعرفه حتى أنني تلفتُ يميناً وشمالاً أفتش عمن لا اعرفه ، ولا أعرف حتى لو وجدته ما الذي سأقوم به نحوه . الشيء المريح أنني ساعة أحسستُ بوجوده في المكان أحسستُ بمن يشد من أزري المتضعضع من مرأى الضد في الميدان.

وقفتُ من مكاني أرى مَن يشبه شكلي ويطابقه تماماً كذاك الذي

ألفتُ رؤيته على المرآة ، وتابعته وهو يتلفت كأنه يبحث عن أحد يعرفه في المحطة ويسحب حقيبته خلفه نحو مؤخرة الباص ليضعها فيها ، أو أنه يبحث عني بعد أن داهمه نفس الشعور إلى أن وقعت عيناه في عيني.

كان صورة طبق الأصل . ويومها لو كنتُ أنا أحد أطفال دار الرعاية لما شككتُ أن مسعوداً هو توأم لي ، وأن بطناً واحدة جمعتنا وتمخضت بنا وقذفتنا إلى الدنيا ، وأن ثدياً واحداً تقاسمناه يوماً فشرب هو منه ثم اعقبته وشربتُ أنا منه ، وأن حضناً واحداً لفنا يوماً وذراعاً واحداً طوقنا ، وأن ذلك حدث قبل أن ترمي بنا الأقدار في دار الرعاية . لكن الحقيقة غير هذه التي سُقتها وما ذلك إلا لأعبر عن حجم الدهشة التي عصفت بي وأنا أرى الرجل يتقدم وأشعر أنني أنا الذي أتقدم ولكن بلباس مختلف ، وبحقيبة أخرى . حتى طوله وعرضه وكمية الشيب في شعره ، بل حتى لفتاته كانت هي ذاتها التي لطالما صنعتها أمام مرآتي.

كنا معاً في الميدان ولم يداهمني مثل هذا الشعور ومسعود قريب مني هناك ، لكن شعوراً مغايراً تماماً أحسستُ به حينئذ وأنا في ذروة غضبي مما رأيت على جدار السرايا . لا يمكنني وصفه لكنه كما لو أن شيئاً أُنتزع مني وأُلقيَّ على مسافة عني جراء هذا الغضب . كان قوياً يتخلخل ويُسحب من أعلى رأسي وحتى أخمص قدمي ، وكان طويلاً كطولي دون أن اعرف أن الذي أُنتزع مني هو مسعود.

امتلأنا غضباً ونحن نقف معاً في مواجهة فكرتنا التي سُرقت منا وقُلبت على رأسها ، وليس هذا وحسب بل ونشرت على الملأ في أكثر الأماكن عجيج بالحركة والحياة ، حتى كأن مَن قلبها يريدها أن

تقلب هذا العجيج بالحياة ليغدوا عجيجاً مقلوباً على رأسه.

وقفنا معاً نتأمل فكرتنا التي باتت تعمل بشكل عكسي لما أردنا لها ، وشعرتُ وأنا في مواجهة الخريطة بصدمة تهدني من الداخل ، وبشيء ينسلخ مني ويتسربل إلى أسفل قدمي ، حتى أنني رفعتُ قدماً بعد أخرى لعلي ارى شيئاً ، لكن شيئاً لم يكن منظوراً.

****

صباحاً وأنا في المحطة ، ورؤية مسعود قريب مني كشخصية مستقلة بذاتها أعاد ذاكرتي لتلك الفترة من عمري يوم كنتُ أعمل جاهداً في محاولات عبثية أقوم من خلالها بتجربة فصل ظلي عن جسدي . كان ذلك في مرحلة مبكرة من عمري ، يوم تصورتُ أن الواحد يمكنه أن يجتز ظله من تحت قدميه ويمشي بلا ظل . شيء لا معنى له وأنا آخذ سيفاً وأضرب به مرات متتالية تحت قدمي ظناً مني ان ذلك سوف يقوم بفصل ظلي عن جسدي ، لأمشي بعدها تاركاً ظلي عني مفروشاً على الأرض ، وأن ذلك سوف يمكنني من الحياة والتنقل بشكل اسهل واخف ، دون أن أعرف أن الظلال هي في الواقع ظلال مصاحبة للحقائق ، وأنه لا يمكن لأي حقيقة مهما كانت صغيرة أن تقف على قدميها ويراها الناس ما لم يكن تحتها ظل ينطرح على الأرض.

فلسفة الظل هذه التي عشتُ معها لسنوات أثمرتْ وتجلت رؤيتها بوضوح تام ونحن في المحطة . كنتُ قبلها لم احدد هوية مسعود بالضبط ، لكن شعوراً متنامي في داخلي كان يقول لي أن مسعوداً ما هو إلا ظلي ، حتى إذا نادى علينا السائق أن يأخذ كل واحد مقعده ، وأن نتأكد من وضع أمتعتنا في صندوق السيارة ، والتفتُ صدفة إلى

الأرض لأجد ظلي غير موجود وما بقيَّ منه شيء باهت وشفاف لا تكاد تراه العين . ووقفتُ في مكاني بين ظلال الآخرين الذين يسوون أمتعتهم في الصندوق ويصعدون الواحد تلو الاخر ، حتى إذا أتى دور مسعود وجدتُ الرجل يمشي بلا ظل تماماً ، وكانت تلك في الواقع هي الصورة التي أكدت لي أن مسعوداً هو ظلي الذي انسلخ مني جراء ما تعرضنا له عند السرايا.

أن تقف في مواجهة خريطة مقلوبة على رأسها ، وتتصور كيف سينقلب ما في داخلها من قامات هو أمر مفزع للغاية . والشيء الأكثر فزعاً هو تصور انقلاب الأوليات تباعاً ، لتنقلب على إثرها الأشياء التي نحبها والتي لا نحبها.

اقتربتُ منه وهو يضع حقيبته في صندوق السيارة ، في حين يبدو أنه هو الآخر لا حظ الشبه الذي يجمعنا وهو يرمقني مرة بعد مرة ، دون أن اعرف حينها أنه كان يعرفني حق المعرفة ، وأنه ساعة وصل المحطة لم يشعر بي وحسب بل كان يعرف مسبقاً انني امامه وفي طريق عودتى من حيثُ جئنا معاً ، لذلك نظراته نحوي لم تكن سوى استطلاع لي إن كنتُ عرفته أم لم اتعرف عليه بعد.

التقت نظراتنا مرات ونحن في انتظار ان تمتلئ الباص بالركاب وينادي علينا السائق . وورد على بالي أن أذهب له وأساله مَن يكون ، وهل هو ظلي بالفعل أم فقط شبهي ، وما هذا الميل الذي يشدني له دون كل الركاب ، ومَن هو ، ومن أين اتى ، وأين يريد ان يذهب .؟ لكن كل تلك الأسئلة ظلت حبيسة صدري ولم أبح بها ولا حتى اقتربتُ منه.

استمر استطلاعى له وتفحصي لشخصيته حتى تأكدتُ منه ولم

يعد من شك أن مسعوداً هذا عجيب وعجيب جداً ، خاصة ساعة بات يرسل إشارات غير منظورة لكنها تصل رأسي مباشرة . أذكر أنني دققتُ رأسي بقبضة يدي لأعرف ماذا يحصل في داخله ، أو ما الذي كان يصله.

عدتُ بذاكرتي لشيء مشابه حصل معي وأنا راجع من الميدان إلى الفندق حين وصلتني إشارات كهذه لكنها لم تحيرني لأنني لم اعرف مصدرها ، وعزوتُ ذلك إلى الغضب والحنق الذي بثه فيَّ مرأى ما على جدار السرايا . لم يخطر ببالي لحظتها ان تلك الإشارات كانت تأتيني من مسعود الذي كان يمشي على الجانب الآخر من شارع المختار ، وحتى ساعة نسيتُ مفكرتي في مقهى صغير جلستُ فيه بعض الوقت وأنا في الطريق للفندق لم يذكرني بها سوى مسعود ، وأيضاً لم اعرف أن مَن كان ينبهني لكل شيء أنساه وأنا أضب أدواتي في الحقيبة لمغادرة الفندق هو مسعود إلا بعد أن طفق التواصل بيننا يتم في المحطة بشكل ملفت ومدهش وجديد.

حاولتُ وأنا في المحطة أن أجد تفسيراً منطقياً لما يحدث معي ، وحاولتُ أيضاً أن اعود بذاكرتي قليلاً قليلاً لأضع يدي على بداياته ، إلى أن وجدته وتأكدتُ من نشأته في الميدان وأمام الخريطة ، وتحديداً قبل أن يذهب هو إلى شارع الرشيد مفصولاً عني ليجلب الكراتين من هناك ، ولم أرى أي تفسير لهذه النشأة سوى أنها نشوء في مناحات مختلفة ساعة وقف مسعود متوتراً لوحده وسط أجواء مشحونة أُحيطت بفكرتنا المقلوبة.

****

آخر مرة تذكرتُ ان ظلي كان يحاذيني هو ساعة وقفتُ في الميدان

وعلى مسافة من فكرتنا المقلوبة . حدث ذلك حين وقعت مني ولاعة السيجارة على الأرض وانحنيت وأخذتها . كان مسعود حتى ذلك الحين ظلاً ينطرح على الأرض ، ويمشي بمحاذاتي محدودباً على كل شيء يعترض طريقه . وصورته وهو ينحني معي ويمد ذراعه ويده ليأخذ الولاعة معي ظلت عالقة في ذهني ، دون أن اعرف لحظتها أن هذه هي آخر صورة له بشكله القديم.

لم يشاورني في بقائه معي أو في شكل وجوده الجديد ، وحتى لو شاورني كنتُ سأقول له افعل ما تشاء ، ولولا خشيتي من السجن لما ترددتُ لحظة في الصعود على سُلم إلى الخريطة والعمل على تدويرها . هذه الخاطرة راودتني كثيراً في مواجهة العمل المقلوب . وليس صعباً العثور على سُلم من المحلات القريبة ، وأيضاً ليس صعباً اقناع الناس أن هذا السُلم سوف ينقلب على رأسه إذا ظلت هذه الخريطة مقلوبة على رأسها وقتاً أطول ، لأن السُلم بكل بساطة موجود داخل الخريطة ، وانقلاب الأخيرة يعني بطبيعة الحال انقلاب كل ما فيها ، وعندها ايها الناس سوف يكون هذا الهرم الذي يشكل قمة السلم مكانه على التراب ، وما كان على التراب مكانه في القمة . مثل هذه الخاطرة وشرحها للناس وإقناعهم بها ليس صعباً ، لو لم يكن وراءها سجن وربما إعدام.

كانت خواطر كثيرة تمر على بالي ، وكنتُ أصرفها عني ، لأنه ليس بمقدوري فعل أي واحدة منها . وكان مسعود حينها يعمل ويتحضر للوقوف بعيداً عن أقدام المارة التي تدوسه ، وهي تمر بنظرات عابرة وغير مبالية لخريطة الضد الذي سوف لن ينجو منها سوى القلة القليلة.

صباحاً ونحن في الباص أرسل لي إشارات مفادها أن تلك الأقدام التي كانت تدوسه بشكل مختلف عن قبل ، ربما تكون قد تنبأت من رسْم الخريطة المقلوب أنها سوف تكون عما قريب في العلا ، يوم يستبدلها القدر مكان الرؤوس ، وأن مُقبل الأيام قد يكون لها وليس للرؤوس.

سألتُ مسعوداً فيما بعد ، إن كان يذكر وقت أخذنا الولاعة معاً من على الأرض ، وعرفتُ منه أنني لو تأخرتُ دقائق لما وجدته . وقلتُ وأنا أراجع أفكاري في مؤخرة الباص ، ربما يكون ذلك التوتر الذي عصف بي هو مَن بعث الحياة في الظل ونهضه ليقف على قدميه.

كان اكتشاف مسعود في المحطة ، ومن تم التعرف عليه في داخل الباص قد بدد عني عناء الطريق . لم اشعر بالمسافة التي قطعتها معهم قبل ان يحدث لنا حادث السير الأليم الي أوذى بحياة مسعود . جلستُ في مؤخرة الباص في حين ذهب هو وجلس على بُعد سبعة مقاعد أمامي وعلى يسار ليلى ، وبعد مسافة ليست بعيدة سمعته يُعرف باسمه لها ، وكان ذلك أول مرة اعرف انه مسعود بن مسعود ، فقلتُ في نفسي أن ذلك اعتراف صريح منه بانتسابه لي ، فهو بشكل او بآخر خرج من صلبي ، ولا يجوز انتسابه إلا لأبيه.

حتى مؤخرة رأسه ورسم اذنيه ومنكبيه من الخلف ، هما ذاتهما اللذين يظهران امامي في كل مرة أركب فيها مصعداً تعكس جدرانه المغلفة بمرآة مؤخرة رأسي ورسم أذنيَّ ومنكبي من الخلف . كانت المسافة بيني وبينه سبعة أو ثمانية مقاعد وعينيَّ لا يفارقانه.

****

ما عرفته وصرتُ أعرفه في كل دقيقة تمر علينا ونحن في الباص

، أن مسعوداً له قدرة استشعارية أكثر من غيره ، وما جعله الله يحاذيني أو يسبقني قبل انفصاله إلا ليمكنني من تحسس ما أعجز عن تحسسه ، لذلك كانت رؤيته بعدها أكبر وأهم من قبل ، خاصة حين وصلتني منه إشارة تنبهني أن أرى الاعوجاج الطفيف الذي ظهر على أحد الركاب في نصف بدنه العلوي ، وأن هذا الاعوجاج سوف ينزل بهدوء على كل بدنه.

كان مسعود لا يتصور وحسب بل يجزم ان في داخل كل واحد خريطة ، إذا مالت يميل معها ، وإذا انقلبت ينقلب معها ، وإذا استقامت يستقيم بها ، وما هذا الميل الذي صار يأخذ ذلك الراكب إلا جراء ميل وقع في داخله.

وقفتُ من مقعدي وخطوّتُ خطوتين ثم وقفت وتراجعتُ إلى مكاني . كان في بالي أن أسال هذا الرجل الذي بدأ يميل ويتجه نحو الانقلاب التام على رأسه إن كان قد وقف في الميدان قبل يومين ، وحتى فكرتُ حين هممتُ بالذهاب له أن آخذ معي الطبيب ليجري له كشف ، لعلنا بذلك نستطيع انقاد ما يمكن انقاده ممن كانوا موجودين معنا في الباص . خال لي أن اعوجاج الرجل مازال طرياً وبالتالي يمكن تقويمه خاصة إذا استعنا بـ مسعود الذي يملك حاسة استشعار عن بُعد.

عملية الوقوف والعودة إلى مقعدي كررتها مرتين أو ثلاثة ، ذلك أنني كنتُ اشعر بالأسف على الراكب الذي آلمني وضعه المائل ، ثم ما البث أن أعود وأقول لنفسي كم بالله عليك سوف تقوّم من اعوجاج . عاودتُ لمكاني وفوجئتُ اكثر حين شعرتُ بمن يجلس عن شمالي يميل قليلاً على كتفي . تنحيتُ عنه بعض الشيء لأفسح له فرصة

الميل أكثر ، وتحيرتُ في أمره ، وأنا لا أعرف إن كان جاري هو الآخر قد بدأ في الميل ، أم أن ما يحدث له أمر عارض سرعان ما يعتدل ويعود لوضعه الطبيعي.

كان شكله عادياً ، وعيناه مفتوحتين ، وحتى حين افتعلتُ حديثاً معه جاوبني بشكل طبيعي لا يوحي بشيء جديد ، لكن الذي جعلني أتصور أنه في طريقه على رأسه هو حركة أطرافه المشابهة للراكب الذي يجلس في الأمام . صار يمسح على رأسه ويطالع كفيه ويتحسس قدميه من حين لآخر . وجاء في بالي أن أسأله عن قدميه ولماذا يتحسسهن من وقت لآخر ، وأبدي مساعدته إن رغب في ذلك.

وبعد تردد عرضتُ عليه مساعدتي إن كان يؤلمه شيء ، أو يرغب في تعديل أو خلع حذائه ، أو حتى إن أراد أن يقف ويتمشى في الممر الممدود بين المقاعد لعله بذلك يستعيد نشاطه ومناعة بدنه ويمدد ويمطط طوله الذي شرع في الميل . هذه الأخيرة راقت له ، أو وجد فيها ممكنة التحقيق ، وربما حتى كبيرة الفائدة ، حين شكرني ووقف لأتنحى عنه قليلاً وأسمح له بالمرور والخروج من مكانه والمشي بين المقاعد.

شعرتُ بضيق بعض الشيء في جلوسي قرب هذا المائل ، وجاء في بالي تغيير مكاني إلى مقعد آخر ، لكنني وحتى لا أقع في فكرة التغيير مرة أخرى ، لابد عليَّ أن أتأكد ممن سوف اجلس قربه ، فمن غير اللائق أن أجلس ثم أكتشف أن جاري الجديد هو الآخر مائلاً فأنهض وأبحث عن جار آخر ، ثم أنهض عنه هو الآخر لأنه مائل . لا داعي لإحراج أحد وإشعاره أن وضعه المائل مزعج لي ، أو إشعاره أنني ما قمتُ من جانبه إلا لأنني اخشى العدوى منه . فبقيتُ

في مكاني أتفحص الركاب وأبحث عن آلية تمكنني من معرفة مَن منهم مائل أو في الطريق إلى الميل ، ومَن منهم ليس مائلاً وليس في طريقه إلى الميل.

****

كانت المرأة أم الطفل تجلس على يمين مسعود ، وكان طفلها الذي ماانفك يركض ويلعب في الممر يعود ويقفز فوق مسعود ليدغدغه ، فيضحك مسعود له ويضحك ايضاً من لذة الدغدغة ، والحقيقة أن ما يقوم به طفلها لم يدغدغ مسعوداً وحسب ، بل كان بعض منه يصلني فأضحك معهما وأشعر ببراءته وبقدرة هذه الدغدغة على طرد بعض القلق الذي أشعر به . بتنا نتصور أنا ومسعود أكثر من نصف الركاب مقلوبين على رؤوسهم ، وكان قلقنا أكبر فيما لو وصل هذا الانقلاب حتى سائق الباص ، وكيف سوف يكون مصيرنا خاصة انه لم يتعود بعد على الحالة الجديدة ، ومَن يدري أن لا ينشب عراك بين مَن انقلبوا على رؤوسهم ومَن لم ينقلبوا ، وكيف سوف يكون شكل العراك ، وهل سيكون بالأيدي أم بالأقدام ، وعندها لاشك أن أكبر خاسر في هذا العراك هي وجوه المتعاركين ، حين تكون قريبة وعلى مرمى الأقدام ، سواء مَن كان وجهه في الأعلى أو مَن كان وجهه في الأسفل ، ذلك أن كل وجه سوف يجد خشمه قريب جداً من مقدمة حذاء ، في حين أن كل حذاء لن يتردد لحظة في دق هذا الوجه على خشمه ، وعندها لا أحد يمكن أن يتصور كمية الدم التي سوف تتدفق من الخشوم في معركة حامية الوطيس داخل الباص.

نهض الطبيب الذي بدى عليه هو الآخر شيء من القلق جراء ما صور له رسم مسعود على الورقة ، وخال لي وهو يأتي ناحية

مسعود ليأخذ مقعداً آخر قريب منه ، أنه مشغول بالمعركة التي قد تنشب في أي وقت ، وإنه ما غير مقعده إلا ليقترب ممن يراه حليفاً له في أي عراك قد ينشب ، وورد ببالي أن أنهض لأنضم لهما ونكوِّن فريق موحد وقادر على رد الخصم ، خاصة أنه من غير المستبعد سوف نكون أقل عدداً منهم ، وفي حاجة لرص الصفوف وتوحيد الجهود ، وحتى رسم خطة مُحكمة تكون قادرة على توجيه ضربة استباقية للعدو.

ظلت نظرات ليلى تميل إلى مسعود ، ونظراته تميل لها بلطف ، دون أن يلاحظ أحد من الركاب هذا الميل الذي يحصل بين الاثنين سواي وربما الطبيب لاحظ شيء منه . ورغم حداثة التعارف الذي تم بيني وبين مسعود ، إلا أنني شعرتُ في مسعود الفطنة التي لا يفوت عليها شيء ، ولا يلفتها شيء ما لم يكن جديراً بالالتفات ، لذلك لم استبعد أن المرأة ربما تكون مهمة في أي عراك محتمل قد ينشب بين الركاب . والحقيقة أن العراك الذي افترضته لم يكن مبرراً حتى لو انقلب نصف مَن في الباص وظل النصف الثاني بدون انقلاب ، لكن الاحتياط واجب ، وقلقي انا ومسعود مبرر لأننا نعلم جيداً التباين الذي سوف يتم لو حصل ووقف نصف الركاب على رؤوسهم والنصف الثاني ظل كما هو.

شعرتُ بالطفل وأمه ككيانين مختلفين قد ارسلهما الله لنا ليُخففا من هذه المخاوف ، ووصلني من مسعود ما يفيد أنهما معنا قلباً وقالباً ، ووصلتني ايضاً بعضاً من بذور الطمأنينة التي كانت تنثرها نظرات ليلى في قلب مسعود كلما التقت نظراتهما.

كان مسعود ساعة يأخذ نظرة منها يعود وينظر للأمام ، ويثبت

صورة عينيها في خياله ، وكان ذلك مبعث سرور لا يطرد فقط الخشية مما قد يحصل لنا في الباص ، بل يطرد حتى صورة ضد على السرايا ظلت تلاحقنا حتى ونحن نبتعد عنها بسرعة 100كم في الساعة.

كانت ليلي جميلة جداً حتى أنني تمنيتُ بقوة لو كنتُ أنا مَن يجلس على شمالها بدل مسعود ، وأنني أنا الذي محط أنظارها ، وأنا الذي يقفز فوقي طفلها من وقت لآخر ، وأنا الذي يدغدغني ، ولكن كنتُ أخفف من حسرتي هذه لأقول لنفسي أنني ومسعود واحد ، وما يدغدغه يدغدغني ، وحتى لو استمالها أكثر وتواصل معها أكثر ، فإن هذه الاستمالة وهذا التواصل لن يبلغ مداه إلا في داخلي ، فأنا الأصل ومسعود الظل.

لذلك لم احسده لكنني فقط تمنتُ لو كنتُ مكانه . كانت بحق جميلة، وجذابة بشكل غير عادي . وكم أستغرب من هؤلاء الركاب لم تلتفتوا لها . كانوا قلة الذين رأيتهم يسرقون لها النظرات ، وكانت هي مختلفة وجديرة بالتفاتات الجميع . ورغم أنه لم يظهر لي منها وأنا في مقعدي سوى القليل من خدها أو شيء من زندها ، وأصابع يدها المصبوغة بالحناء ، أو ذلك المهرجان الذي ترسمه عينيها في خيال مسعود ، إلا أن اختلافها كانت تعكسه حتى نظرات أولئك القلة الذين يلتفتون وينظرون لها من حين لآخر . ولا أنكر أنني حاولتُ أن أصرف النظر عنها مرات ومرات ، ذلك أنها لن تكون سوى امرأة عابرة ما تلبث أن تقف الباص لها في أحدى القرى الواقعة على جانبي الطريق ، وتنزل وتتركني أنا ومسعود نواجه همنا لوحدنا . حاولتُ مراراً أن أعد نفسي وأحضرها قبل كل محطة أتصورها أنها

سوف تنزل فيها ، لكنها كانت تواصل سيرها معنا حتى آخر دقيقة وقع فيها حادث السير الأليم الذي أودى بحياة مسعود ، ساعة زحفتُ نحوه على التراب ، وتحسسته بيدي ، ووجدته بارداً.

وفي كل مرة كنتُ أصرف النظر عن ليلى وأقول أنني لن اهتم بها، كان خيال مسعود الذي يناوشني حاملاً معه صورة عينيها يجبرني على إعادة النظر في قراري ، لأعود مجدداً وأنشغل بها وأشعر بتوهج غريب في داخلي لم يحدث لي أن شعرتُ به مع أي امرأة في هذا العالم ، وكان ذلك يصلني بعد أن يكون مسعود قد توهج وامتلأ توهجاً.

كانت كيمياء مفضوحة تتفاعل في الممر بين مسعود وليلى ، لكن لا أحد يراها سواي . قلتُ له في نفسي عش معها يا مسعود دقيقة بدقيقة ، ولا تصرف نظرك عنها ، أو عُد لها بعد وقت قصير ولا تطيل النظر بعيداً عنها ، إذ مَن يدري يا مسعود أن لا تغادرنا وتنزل في أول منطقة.

****

شيء آخر كان جدير بالتفات وهو نوع ولون الحناء التي استخدمتها . لم تكن الحناء التي صبغت قدمها هي ذاتها التي صبغت أصابع يدها، لالا كانت مختلفة ، وهذا الاختلاف زاد من جمالها الذي أخذني وصار يأخذني لها أكثر . كانت حناء اليد داكنة أكثر من القدم ، وحتى الجزء المكشوف من ساقها ساعة مدته بموازاة ساق مسعود الممدود أصلاً على الجانب الآخر من الممر ، ظهرت حنته أخف من حنة اليد . يومها لأول مرة اشعر بقيمة الحناء وبساق المرأة . كنتُ انظر إلى ساقها فيظهر لي رائعاً كالسرايا ، في حين اجتاحتني رغبة قوية

تطالبني ان اقوم من مكاني وأتقدم وأجلس في أي مقعد فارغ قريب منها ، وليترك لي مسعود الساق ويأخذ ما يريد منها . لن اطلب اكثر من الساق . الساق وحده يكفيني ، والحناء التي عليه تكفيني وزيادة . كانت خطوط الحناء لا تقل جمالاً وروعة عن الخريطة التي تمنيناها على جدار السرايا . خال لي الجدار والخريطة عليه كما تمنيتها أنا ورسمتُها وسلمتها للحرس هناك ، أنها سوف تكون بجمال هذه الخريطة التي ترسمها الحناء على ساقها . تراءت لي صفحة ساقها كصفحة السرايا ، وخطوط الحناء عليه كخطوط خريطتي ، وخالت لي ليلى هي سيدة المكان والزمان.

لا أعرف من اين ظهرت هذه المرأة ، وكيف نبتت في وسطنا دون أن ننتبه لها في المحطة ، ومن أي جهة جاءت المحطة ، ومن أي باب صعدت إلى الباص ، وهل كان بصحبتها أحد ساعة وصلت للمحطة أم أنها وصلت لوحدها . حاولت تذكر تلك الساعة التي قضيتها في المحطة أرقب مجيء الركاب وصعودهم الواحد تلو الآخر ، ولم تأتي صورتها من بين الركاب ، وكل ما اذكره هو لحظة رأيتها تضع حقيبة يد صغيرة في الرف العلوي للباص وتأخذ طفلها في حضنها وتجلس حيث هي . لا أذكر انها كلمت أحداً ، ولا شيء يوحي أنها بصحبة احد . الجميع لا علاقة لهم بها . الفرق بين هؤلاء الجميع أن بعضهم ينظرون لها بتودد ورغبة في مد جسور علاقة ولو لمسافة الطريق ، والبعض الآخر لا ينظرون لها.

من بين هؤلاء الذين يعلقون نظرهم فيها كان مراهقاً في الخامسة عشر تقريباً يجلس قريب مني ، حين سألته عنها ، ومن أين هي ، وأين تعتقد أنها سوف تنزل ، وأسئلة أخرى كان هو قد شجعني على

فتح باب التواصل معه بشأنها ، ساعة التفتَ لي وابتسم مشيراً نحوها برأسه . لم أفاجأ بإشارة رأسه نحوها لكنني ما كنتُ أود الحديث مع أحد عنها ، ولا أحب ان ينظر لها الآخرون أنها امرأة لعوب ، ولو لم يضيف هذا المراهق الذي أشار عليها ويصحح من تلقاء نفسه نظرته لها ، لما استمر التواصل بيننا أكثر . لا أعرف ما الذي دعاه لتصحيح فهمي الخاطئ لنظرته لها . قلتُ ربما لا حظ شيء من امتعاضي حين أشار عليها بما يوحي أنها لعوب ، أو ربما خشيَّ ان يُفهم خطاء فاستدرك بنظرة وإشارة أخرى نحوها تنم عن تقدير واحترام لها.

تواصلتُ معه ، ونهض من كرسيه ليجلس إلى جانبي بعض الوقت ، حين لم أستوعب ما كان يشير به لي عن بشرة تلك المرأة . حاول أن يفسر لي بيده وهو على مسافة مني ، وحين لم افهم ماذا يعني نهض وجاء ليقول لي بعظمة لسانه ، ان لون بشرة هذه المرأة يختلف تدريجياً من اسفل إلى أعلى ، وهذا ما لم أتصوره ولا يمكن لي تصوره لو لم يأتي هو ليُثبت لي ان الاختلاف ليس في لون الحناء التي اختلفت تدريجياً بين اليد والقدم ، بل في لون البشرة التي تحت الحناء ، وكان ذلك شيئاً جديداً وحتى جميلاً حين صارت تلك السمرة الخفيفة التي تغمر ساقيها ، ولابد تغمر حتى فخديها ووسطها تخف تدريجياً لتظهر اكثر بياضاً عند رقبتها وبعض من زندها المكشوف . ما كان هذا التدرج لتراه العين لو لم يكن هذا الشاب نبِهاً بما فيه الكفاية أو شديد التعلق بها ، إلى الحد الذي رأى ما لم أراه لا أنا ولا مسعود.

أعجبتُ به وسألته عن اسمه ورفعتُ بعضاً من أمتعتي التي كنتُ أضعها على المقعد بمحاذاتي ليجلس هو وقتاً أطول ، وعرفتُ منه

أن اسمه «غيث» ، وأن هذا التدرج في اللون ربما يكون مرده انها تكشف ساقيها وربما حتى فخديها ونصفها السفلي إلى أشعة الشمس اكثر مما تكشف صدرها ونصفها العلوي . لم يسبق له مثلي أن شاهدنا بِشرة تخف أو تزداد سمرتها تدريجياً إلى أعلى أو إلى أسفل . كان لونها الخلاسي الذي يبدأ من قدميها يتفتح بشكل خفيف جداً وغير ملحوظ كلما صعد إلى أعلى ، حتى إذا وصل جبينها خال لك ناصعاً كأنها أمازيغية الجذور.

****

يوم كان مسعود ظلاً يحاذيني كان أكثر الأشياء التي يحب رسمها هو السُلم . كنا نمد يدينا نحن الاثنين ونرسمه سوياً على التراب ، وما كان ذلك مقصوداً أو يهدف لشيء محدد لكنها عادة تعودنا عليها وبتنا لا نفارقها ولا تفارقنا . لا أعرف لما اخترنا السُلم دون غيره ، ولما لم نختر شجرة أو نجمة أو باباً مثلاً . كان السُلم هو المفتتح لأي رسومات اخرى تأتي بعده ، أو لأي خواطر وتفاسير تأتي بعده ، حتى يوم فتشتُ عن سبب اختيارنا للسُلم لم اجد سبباً مقنعاً يقدمه عن غيره سوى أنه أسهل الرسومات.

كنا نرسم خطين طولين يشكلان ما يشبه الهرم ، ثم نقوم بتقسيم هذا الشكل بخطوط قصيرة تصل بين الخطين ، فيظهر سلماً له أعلى وأسفل . نرتب الخطوط من أعلى نزولاً حتى أسفل السُلم ، ثم تمتد يدي ويد مسعود لتمسح الرسم وتُشرع في تخطيط رسومات أخرى . لا أذكر أننا بدأنا برسم آخر غير السُلم ، ولا أذكر أننا بدأنا بالتفكير في أمر ما قبل أن نرسم سُلماً على التراب في خلوتنا على أطراف القرية ، أو على ورقة تحت مصباح في خلوتنا داخل الغرفة ، حتى

أنه ليخال لي احياناً أن في السُلم توجد كل الرسومات وبلا سُلم لا يوجد رسم.

يومها ما زال لم يستقل مسعود بذاته ويشكل كياناً مستقلاً يتنفس ويتحرك ويفكر . مازال حتى ذلك الحين يتنفس مني ويفكر برأسي ويتحرك بقدمي ويرسم بيدي ، وحتى ساعة يرغب في رسم شيء لا يمكنه رسم شيء ما لم اقوم أنا بمد يدي إلى القلم ليمد هو يده بموازاتي ونرسم معاً . على الأقل هذا ما اعتقده دون تأكيد قاطع ، إذ مَن يدري أن لا أكون أنا الذي اتنفس منه وأفكر برأسه وأتحرك بقدميه ، لا شيء يثبت العكس ، لكن الأكيد أننا كنا على توافق تام ، ولم اذكر مرة أننا اختلفنا وإن كنا في مرات عدة نتجادل حتى نصل إلى قناعة أو نقف ونمشي معاً ونحن في حيرة تامة.

كنتُ انظر له وهو يتمدد معي على كتيب رمل خارج القرية ، وأتصوره كيف يتمرغ عليه معي ، وكنتُ يومها أتوعده باليوم الذي سوف افصله عني لأعيش بلاه ، دون أن أعرف انني حينها اقوم بإعداده وتهيئته نفسياً للانفصال . تصورتُ نفسي مرات وأنا طفل وحتى وأنا شاب لو أجتز ظلي من عند قدمي وأمشي بلا ظل ، لكنني لم اتصور أنه لو حدث هذا فسوف ينفصل ويحمل شكلي وطباعي وحتى اسمي.

ولدنا معاً وكبرنا معاً ورسمنا السُلم معاً ، وتصورنا طيلة رفقتنا أن بالسُلم يبدأ كل شيء وبلاه لا يمكن أن يبدأ شيء ، ويوم قُلبت خريطتنا على رأسها وعلى رأس مَن قلبوها ، كان أول ما شغل مسعود هو مصير السُلم في داخلها ، وساعة تصوره مقلوباً على رأسه ، استشاط غضباً وارتعد ولابد أنه تخبط دون أن اشعر به

لينفصل على إثرها من شدة الغيظ . كنا لحظتها تحت ظل السرايا وليس بمقدوري رؤيته ينتفض ويتحرك بمعزل عني ، وكل ما شعرتُ به هو أن شيئاً ينسلخ من داخلي ، وتحديداً بدأ انسلاخه من أعلى رأسي لينتهي عند بطن القدم ، وأيضاً شعرتُ بعدها أن قدرتي على التركيز قلَّتْ وحدسي على استشعار ما هو قادم انعدم ، دون وضوح ومعرفة السبب ، إلا ساعة وصل مسعود للمحطة وفي يده حقيبته ، لأعرف فيما بعد أن كل ما شعرتُ به في الميدان كانت نشأة مسعود من العدم ، وأن الله يوم مد الظل بمحاذاتنا مده ليعيننا على مصاعب الحياة ، ويستشعر لنا ما نعجز عن استشعاره ، وأن الله ساعة مده وقبضه له كان يود أن يقول لنا أن ظلالكم هي مخلوقات حية يمكن الاستعانة بها.

****

في الباص وبعد أن عاد الفتى غيث إلى مقعده حيث يجلس والده الذي يرافقه ، نهضتُ أنا من مكاني وذهبتُ للأمام لأجلس على كرسي أمام مسعود . شعرتُ بعد تفكير ان هناك عند مسعود قد يكون المكان مناسباً لي من مؤخرة الباص حيثُ أجلس . رأيتُ أن مسعوداً وليلى والطبيب لا ينقصهم سوى شخص واحد ليشكل معهم مربعاً ، وأن وجودي هناك قد يفيد بعض الشيء إذا تمكنت من خلق تواصل بينهم ، فالطبيب الذي تقدم وجلس أمام ليلى سوف يكون قريباً مني ويمكنني فتح مواضيع معه ، ومسعود حتى وإن لم نتكلم مع بعض يعرف أنه ظلي ، ولابد يعرف انني على علم حتى بما يفكر ، وليلى هي نفسها رمقتني أكثر من مرة بنظرات لم أجد تفسيراً لها سوى أن مسعوداً أشار لها عليَّ ، وربما يكون قد اخبرها عني بصفتي صديقه

أو رفيقه ، او ربما رمقتني لأمر في نفسها ، المهم أن تلك الرغبة التي راودتني في المضي قدماً للجلوس هناك عند ليلى ومسعود ماانفكت تتضاعف حتى ما عاد بوسعي مقاومتها.

نهض غيث وعاد لمقعده ، وبعد حوالي خمس دقائق وقفتُ وحملتُ معي جرابي الصغير الذي وضعته جنبي على المقعد ، ورميتُ معطفي على كتفي لأمشي وأجلس هناك أمام مسعود حين اعترضني غيث ليُعرفني على والده الذي يجلس بجانبه . صافحته ودعاني للجلوس معهم على كرسي ثالث خالٍ إلى جانبهما ، لكنني اعتذرتُ ووعدته أن أعود لهما فالطريق طويل وهناك متسع من الوقت للقاء والحديث أكثر ، وأثنيت على ولده غيث ونباهته التي تفوق سنه ، وبادلوني ابتسامة وأنا في طريقي عنهم إلى الأمام.

من قبل وقوفي من مكاني كنتُ قد حددتُ مقعدي الجديد ليكون أمام مسعود ، فهناك بوسعي ، وبلفتة صغيرة أن أنظر إلى ليلى ، وهناك لن يفصلني عن مسعود سوى ظهر الكرسي الذي أجلس عليه ، وبالتالي سوف يصلني ما يدور في رأسه بوضوح . وهناك أيضاً سوف يكون الطبيب على يميني ولا يفصلني عنه سوى الممر الضيق الذي بوسعي أن أرى منه ما رسم مسعود له على الورقة ، وحتى يمكن فتح موضوع للنقاش بيننا نحن الأربعة حول الرسم . فالرجل المرسوم على الورقة لم يقف على رأسه أو يمشي على يديه وحسب بل يقوم بشيء آخر لم أتبينه ، وحتى حين تحدثُ مع غيث ووجدته منتبهاً لكل ما كان يدور حول ليلى ، عرفتُ منه أن مسعوداً اعطى الطبيب ورقة مرسوم عليها رجل يقف على رأسه ويدخن سيجارة ، وحين سألني عن تفسير الرسم ، لم أجبه بشيء سوى أن مسعوداً

رجل عراف وله قدرة قوية على استنطاق الغيب ، وأنه ما رسم هذا إلا لأن هناك مَن سيقفون على رؤوسهم ويدخنون السيجارة . قلتُ هذا لـ غيث كتفسير مبدئي للصورة التي شغلتني بعض الشيء ليس في نقلها لواقع قد يحدث في المستقبل وحسب ، بل أيضاً في قدرة مسعود على نقل هذه التفاصيل الصغيرة والدقيقة من المستقبل . إذ هل مَن قلبوا الخريطة على رأسها كانوا يعلمون أن الناس التي تُدخن السجائر سوف ينقلبون ويدخنون سجائرهم وهم على رؤوسهم ، وإذا كانوا يعلمون ، كيف لمن يريد أن يدخن وهو يمشي وفي عجلة من أمره ، وأيضاً كيف لمن أراد أن يقف في حديقة أو على الشاطئ ويدخن.

ساعة جلستُ على مقعدي الجديد ، وما زلتُ أصلح من وضعي على الكرسي لمحتُ الرسم ، ووجدته بالفعل كما نقله لي غيث ، وتأسفتُ كثيراً على حال هذا المقلوب الذي لا يعرف ماذا يعمل بيديه، هل يقف عليهن ويخطو بهن ، أم يدخن بواحدة ويقف على الثانية ، أم مع الوقت سوف يتعلم وينقل وظيفة التدخين من أصابع اليد إلى أصابع القدم ! كان الطبيب هو الآخر يبدي أسفه الكبير الذي ظهر واضحاً على وجهه.

قلتُ للطبيب قبل حتى أن أسلم عليه لا أحد يا طبيبنا يدبر على الجسد سوى الرأس ، ومَن وقف على رأسه ، ما كان ليقف لو لم يكن ذلك تدبيراً من تدابير رأسه.

****

بعد مسافة من الطريق سمعتُ مسعوداً يسأل الطبيب إن كان قد مر بالميدان في اليومين الماضيين ام لم يمر به ، وسمعته يسأله إن

كان قد مر ووقف أمام منظر الخريطة هناك أم لا ، وإن كان قد وقف طويلاً وأمتلأ بصورتها المقلوبة أم فقط مرور الكرام .؟ ثم سمعته ينذر الأطباء بحالة كحالة الخريطة ، ويسأله كيف سيحمل الطبيب حقيبته وأين سيعلق سماعاته ساعة يقوم بالكشف على مريض ، وليس أي مريض بل المريض الواقف على قدميه . من أين سيبدأ الكشف عليه وكيف سيتعامل معه ، وكيف سيتحسس صدره ، وكيف سيكشف على فمه إذا كان فم المريض باق في اعلى جسده ، والطبيب انقلب وصار وجهه وسماعاته ويداه اللتين يقومان بالفحص موجودتان في أسفل الجسد ، ثم مكان الحقيبة ، هل يمكن تدبير أمرها وتعليقها هناك في اصابع القدم.؟!

كنتُ انصت إلى تحذير مسعود وأنظر إلى الطبيب الذي صار يتفاعل مع التحذير رويداً رويداً . أشار مسعود إلى ورقته التي رسم عليها رجلاً مقلوباً ، وحذر الطبيب من مصير مشابه إن هو وقف واستهواه منظر الخريطة على الجدار ، وأن المسافة بينه وبين هذا المصير لا يحكمها سوى حجم الهوى الذي شده وأبقاه واقفاً قبالة جدار السرايا ، فإن كان قوياً فقد يكون الآن على مسافة قريبة ، وإن كان ضعيفاً فمعنى ذلك أن فرصة كبيرة متاحة له لاستدراك الأمر قبل فوات الأوان ، وإن لم يستهويه أو لم يمر من هناك أصلا فلا خوف عليه ولا يحزنون.

لم يقاطعه الطبيب طيلة حديثه وتحذيره له ، إلا عندما أكد له أنه قد يكون على مسافة قريبة من مصير الرجل المقلوب على الورقة ، عندها سمعتُ الطبيب يُلفت مسعوداً بأن كل أو جل الركاب قد مروا على الميدان ، وأن هناك مَن أخذه منظر الخريطة ، وأنه سمع

الكثير من الركاب يتحدثون عنها في المحطة قبل ركوبهم الباص ، ولم يتأخر مسعود حين سمعته يدق بيده على مسند الكرسي ، ولمحته خلفي يهز رأسه ، في إشارة إلى أن عملية انقلاب كبير قد تكون بدأت تأخذ أول خطواتها في داخل الباص . ولم يكن جزع الطبيب هيناً حين رأيت ملامح وجهه تترجم دقات مسعود على المسند وتعكسها بوجه جديد يخشى أن ينقلب الناس في الباص على رؤوسهم ، وقد يطلبه أحد المقلوبين للفحص ويكون هو غير مقلوب أو لم ينقلب بعد ، وصار بعدها يتحسس حقيبته ، ويتفقد ادواته ، ثم نهض وظل واقفاً في مكانه يجري تجارب على مريض افتراضي واقف أمامه في الممر ، في حين طفق مسعود يتدخل من حين لآخر ويساعده ، بوصف هذا المريض مقلوب على رأسه ويحتاج للمعاينة والفحص ، والطبيب ومسعود واقفان على قدميهما ، عندها فقط خطر ببالي أن العب دور الرجل المريض والمقلوب على رأسه ، ولم أتأخر في تنفيذ الفكرة على أرض الباص حين تشقلبتُ أمامهم في الممر على رأسي ، ولم تكن سعادة الطبيب صغيرة حين تقرفص جالساً امام وجهي المقلوب ، وشرع يتفقد فمي وحلقي ، ثم تفحص عيني ، ثم طلب مني أن آخذ نفساً طويلاً وهو يضع سماعاته على صدري ، ثم وبخفة التقط عدة أخرى تخص الأذن وشرع يكشف على أذني ، ومن أذني انتقل إلى أنفي الذي كان موجهاً نحوه ولا يحتاج صعوبة في رؤية تجويفه ، وكل ذلك أجراه الطبيب ولم يتجاوز خمس دقائق ، ليربت على ساقي الممدود عند سقف الباص ويأذن لي بالعودة مع الشكر طبعاً.

لم يخفي الطبيب اعجابه وشكره بالخدمة التي قدمتها له ، وحتى مسعود الذي كنتُ اشاهده من الأسفل والطبيب يجري فحصه كان

واضحاً أنه سعيد بما أقدمه للطبيب ، ليكون هذا الطبيب هو أول طبيب في العالم أو في التاريخ يجري عملية معاينة وفحص لمريض مقلوب على رأسه ، وأنه لو حدث ونجح مشروع الضد في ليبيا وانتقل إلى الدول المجاورة ومنها إلى العالم فسوف يكون الطبيب هو أكبر وأقدم مرجعاً لمعاينة المقلوبين ، ولاشك أن أكبر المراكز الطبية في العالم سوف تكون على موعد معه من حين لآخر ، ومَن يدري يوم يوافيه الأجل أن لا يقف كل العالم دقيقة حداد على رأسه ، وحتى أولئك الغير المقلوبين سوف يقومون بعملية بانقلاب ولو انقلاب نصفي حداداً على هذا الرائد في مجال فحص ومعاينة المقلوبين في العالم ، لكن ذلك يظل افتراضاً ومبالغة مني ، ذلك ان شهرته لن تتعدى حدود البلاد ، وانه لو مات يوماً ووقفت الناس عليه حداداً فلن يقف عليه أكثر ممن يسكنون الخريطة المقلوبة ، وعلى أية حال فهو يكفيه هذا ، ويكفيه ان تقف ليبيا وتحسب له هذا العمل السباق والمبادر الذي استبق به ما قد يحدث حين أجرى أول عملية فحص مقلوبة ، في حين لم يخطر على بال أحد أنهم مقبلون على هذا الفحص الواحد بعد الآخر ، حتى أن كل ركاب الباص استغربوا كثيراً من التجربة وعملية الفحص المقلوبة التي اجراها الطبيب عليَّ داخل الباص.

****

خطر ببالي أن أقول إلى مسعود قبل ان أقف على يديَّ في الممر أمام الطبيب ، أن احتمالية انقلاب مَن يسكنون الخريطة على رؤوسهم ، هو احتمال أو فرضية أنت يا مسعود مَن افترضها ، ولا ينبغي المبالغة وتأكيدها ما لم تظهر بادرة تشير إلى قُرب وقوعها . التفتُ لأقول له ذلك وكانت تلك أول مرة أملأ عينيَّ منه ، وأراه جيداً ،

وأرى تلك التقاسيم الدقيقة التي كنت أتفرس فيها على وجهي أمام المرآة مرسومة على وجهه ، وأرى ايضاً خطوطاً أخرى صغيرة ليست عندي ولم أستبعد أنها في الطريق إليَّ ، وعزوتُ ذلك أنه ظلي الذي يسبقني في كل شيء ، حتى في العمر وتجاعيده ، ومَن يدري أن لا يكون قد سبقني حتى في الولادة من بطن أمي . لم أساله عن شيء ، فقط أوحيتُ له برأي في فرضية الانقلاب التي صورها وصار الطبيب مرعوباً منها ، ولم ينتظر أو يتأخر في رده عليَّ حين أشار علينا نحن الاثنين أن ننتظر أول محطة ونرى ما لم نره في حياتنا أبداً . ولم يفصح عن شيء لكنه كان وثقاً أن صورة جديدة سوف ترونها على الركاب أو على بعض الركاب في أول محطة . هذه الثقة البادية عليه وهو يصور لنا البوادر على البعض ، هي مَن دفعت بالطبيب ليتحسس أدواته الطبية في الحقيبة ، ودفعتني أنا لأقف أمامه مقلوباً على رأسي وأقوم بدور شكلي لمرضى المستقبل الذين سوف يتعامل معهم في مصحته ، وفي إثناء ذلك طلب مسعود من الطبيب أن يفترض نفسه مقلوباً ، إذ مَن يدري أن لا يزينوا له صورة الخريطة المقلوبة ويقنعوه بصحة وضعها ، ومن ثمة يسري عليه أمر الانقلاب ، وينقلب هو الآخر على رأسه ، ويغدوا واحداً من الأطباء الذين يستقبلون مرضاهم وهم يقفون على رؤوسهم.

فكرة أن ينقلب هو الآخر على رأسه لم يستبعدها الطبيب عن رأسه ، لا لأنهم سوف يقنعونه بصواب فكرة الخريطة المقلوبة ، ولكن مجارات ومجاملة العامة الذين يشكلون غالبية المرضى هو أمر مطلوب ، بل أمر ضروريً ، وما على الأطباء إلا أن ينقلبوا على رؤوسهم مع غالبية مرضاهم . إذ ليس من اللائق أن يظل

الطبيب واقف على قدميه وأمامه مريضه واقف على رأسه ، لا شك أن منظر بهذا الشكل سوف يحرج المريض ويزيد معاناته ، ثم ماذا لو كان المريض أنثى ، وامرأة في شهرها الثامن أو التاسع ، أو حتى ليس حاملاً ، فمجرد وقوف امرأة مقلوبة على رأسها أمامه وهو غير مقلوب سوف يسبب حرجاً كبيراً له ولها ، مما يدفع المرضى للبحث عن طبيب مقلوب على رأسه ، وعندها لا شك أن فرقاً كبيراً سوف يظهر بين إقبال المرضى على أطباء دون أطباء ، ولن يكن من مناص أمام جميع الأطباء إلا الانقلاب على رؤوسهم أو السفر للخارج والبحث عن عمل ومداواة مرضى ليسوا مقلوبين على رؤوسهم.

لذلك وبعد أن أجرى الطبيب تجربته عليَّ كمريض مقلوب ، إنقلب هو أيضاً ليُجري تجربة من نوع آخر يكون فيها الطبيب والمريض مقلوبين معاً على رأسيهما . حاول أولاً أن ينقلب وأنا أمامه على رأسي ولم يوفق . وضع حقيبته وأدواته على المقعد بعد أن أنهى فحصي وجرب عدة مرات لكنه في كل مرة كان لا يصمد على رأسه أكثر من ثوان ، في حين لم تمكنه هذه الثوان القليلة من التعرف على وجهي بشكل جيد ، إلا ساعة وقف مسعود وساعده ليجد نفسه مقابلاً لي وجه لوجه ، وينظر عن قُرب للأماكن المراد معاينتها وفحصها ، ويتبين له سهولة التعامل مع المقلوبين إن هو انقلب مثلهم على رأسه ، فالفم الحلق والعينين والأذن وأشياء اخرى ظهرت له قريبة جداً من وجهه ، على خلاف لو بقيَّ هو واقفاً على قدميه والمريض على رأسه ، لذلك كرر المحاولة مرات ليشعر مع كل محاولة بحجم المصيبة الكبيرة التي تنتظر الأطباء ، وإن كل الأطباء ما لم يستبقوا

الأحداث ويتدربوا على الانقلاب ليكونوا جاهزين لاستقبال المرضى ، فإن جميع مَن يمرض سوف لن يجد مَن يُشخص حالته ويصف له الدواء المناسب.

لم يُخفي الطبيب خوفه مما هو مُقبل ، إذ ماذا لو اضطر الأطباء في البلاد إلى الانقلاب لمداواة الناس والحيلولة دون تفشي الأمراض بينهم ، عندها ما مصير مَن يمرض ولم يطاله الانقلاب ، وظل واقفاً على قدميه . مَن سوف يكشف عليه ويُشخص حالته ، وكيف سيتفاهم مع الطبيب المقلوب على رأسه ، وحتى لو وجد مَن يكشف عليه ، أين سيجد الصيدلية التي تفتح شباكاً لها في اعلى الجدار ، أم انه سيضطر إلى الجلوس لاستلام الدواء من أسفل الجدار ، وكيف لو أن هذا المريض لا يستطيع الجلوس والنهوض بسهولة ، وحتى لو وجد مَن يعينه من المقلوبين في استلام الدواء ، إلى متى سيظل في حاجة لإعانة الآخرين.؟!

مثل هذه الأسئلة وإجاباتها كانت موضوع نقاش دار بيننا نحن الأربعة ، انا ومسعود وليلى والطبيب ، فور أن انهى الطبيب محاولاته المتكررة في الانقلاب على رأسه أمامي ، في حين ظل طفلها يقطع حديثنا من حين لآخر ويجبرنا على الحديث معه ، وظل مسعود محتفظاً بالصورة التي سوف تفاجئنا في أول محطة ينزلون فيها الركاب . لم يبح بشيء عنها ، بل حتى لم يدعها تعود وتبقى لتكتمل في مخيلته ربما حتى لا أطلع عليها وأظل في شوق لها ولمرآها ، في حين بقيتُ أنا أتربص بما يدور في رأسه لعلي أعثر على أجزاء منها ، فهي إن لم يخب ظني دليل على أن الانقلاب آتٍ لا محالة ، ذلك ان مسعوداً ما حذرنا أو أنباءنا على المفاجأة إلا بعد أن

لمته لأنه هو صاحب فكرة الخريطة على جدار السرايا ، وأكدتُ لهما أننا يوم كنا نخرج على أطراف القرية أنا وهو لوحدنا ، ونسبح معاً في حوارات صامتة وخيالية كان هو أول مَن أوحى لي أن نذهب إلى طرابلس وننشر الخريطة على جدار السرايا ، وما كان لمن قلبوها على رأسها أن يقلبوها لو لم نُطلعهم على أهمية وضعها وثتبيتها أمام أعين الناس في الصباح وفي المساء ، ليقلبوها ويضعوها على رأسها دراية منهم بأهميتها لهم ولمشرعهم وهي مقلوبة ومثبتة أمام أعين الناس في الصباح وفي المساء.

****

في وسط الحوار الذي دار بيننا حول تلك الأسئلة التي فرضت نفسها عن طبيب مقلوب ومريض غير مقلوب أو العكس ، سحبت ليلى ساقها إلى الخلف ووارت بفستانها جزء كبير منه كان مكشوفاً ، وظل جزء آخر من الساق لم يصله الفستان ، وبقيَّ كعب القدم وبعض من الأصابع تظهر من مقدمة الحذاء ، وشعرتُ بمسعود يسرح قليلاً عن الحوار ويُقر في نفسه أنه لم يرى امرأة على هذا القدر من الجمال . حتى النساء الجميلات اللاتي صادفهن في الشارع وكن ينظرن له يوم كان يحاذيني على الرصيف ليس فيهن واحدة مثل هذه . كان يُحب النساء أكثر مني ، وكان يغازل النساء أكثر مني ، وحتى يحاول أن يغريهن بالنظر له وهن يغضضن النظر عني ويُدرن وجوههن عني صوب الأرض ، وكانت تلك اسعد الأوقات عند مسعود ، فينظر لهن وينظرن له ثم يذهبن لتبقى صورة وجوههن الجميلة في مخيلته حيناً من الوقت . لكنه وحسب ما عرفتُ منه أنه لم يصادف أن نظرتْ فيه واحدة بجمال وفتنة ليلى . كان اسمها ليلى وحاول مذ التقاها في

الباص ان يجد رابطاً بين اسمها المأخوذ من الليل وبين هذه السمة الحزينة التي توشح وجهها . فالليل الذي كثيراً ما ألقوا ظلامه على كل ما هو غير محبوب ، لا يشبهها في الظلام ولكن ربما يشبهها في غياب الشمس عنه . فكر مرة أن يسألها ، وشعرتُ به يفكر في ذلك ويهم بسؤالها ، لكنه أحجم عن السؤال مثل كل مرة ، وفضل النظر لها وحسب.

خالت له كسيدة كانت يوماً سيدة قومها ، ثم بعد غزو من قبائل مجاورة أُخذت ليلى سبيَّة مع جملة سبايا ، ليصنع ذلك السبي وشاحاً من حزن يلمح ويختفي بين الفينة والأخرى على وجهها . وكان في قسمات وجهها شيء رافضاً ، دون أن يعرف مسعود علاما الرفض ؟ وحين عجز عن تفسير ذلك عزاه رفضاً للحالة التي وقعت فيها.

لم يستطع مسعود تصور أن الجمال والفتنة هي صورة مشاعة لكل الناس ، وأنه يمكن حتى للأسر الفقيرة أن تنجب أجمل الفتيات ، لكن جمال ليلى مختلفاً عن جمال تلك الفتيات اللآتي يخرجن من افقر الأحياء ، ومن أوضع الأسر . كان فيها شيء يوحي بالعزة والفتنة معاً ، وهاتين الصفتين لا يمكن أن يجتمعا إلا في عزيز قوم ذُل ، حتى وصل بها الحال أن تركب معهم في باص من الدرجة الثالثة أو الرابعة . لذلك ما طال مسعود النظر في عينيها ، بل أداره بسرعة عنها ، وكانت رغبة كبيرة تدفعه لأن يعرض مساعدته وطاعته لها إن هي طلبت منه شيئاً ، لكنها ما لبثت ان زرعت على وجهها بسمة خفيفة ظنها مسعود انها موجهة له ، وأنها بمثابة شكر ودعوة له ان يهدئ من روعه.

كنتُ أنا حينها مشغولاً بساقها الذي ضمته لها قليلاً ، وبالحناء التي

تصعد مع الساق إلى أعلى . والحقيقة كم شعرتُ بضآلتي وحقارتي حين انتهيتُ من تتبع هذه الخطوط في خيالي . كم شعرتُ أنني صغير جداً أمام مسعود الذي لم تشغله الحناء بقدر ما شغلته صاحبتها.

كان مهتماً بمساعدة ليلى وإنقاذها للخروج مما هي فيه وأنا مهتم بتخيل الشكل الذي سوف تأخذه الحناء تحت الفستان إلى أعلى . تراءت لي الخطوط سوف تتوارى في الظلام تحت الفستان ، وبالتالي يصعب عليَّ رؤيتها حتى لو أتيحت لي فرصة النظر من تحت الفستان ، وأن هذه الخطوط إن حدث وتعدت ركبتها فلن تتعداها سوى بمسافة شِبر ، وأنه في نهاية الخطوط وعلى مسافة شِبر آخر يوجد خط من نوع آخر يضع النهاية ، وإن هذه الخطوط الحنيَّة هي في الواقع ما كانت لتوجد على الساق وتصعد معه لو لم يوجد ذلك الخط الذي يرسم النهاية لكل الخطوط بل النهاية لكل شيء . هذه النهاية لتفكيري أو هذا التفكير الذي قادني لهذه النهاية ، هو الذي قادني فيما بعد إلى احتقار ذاتي ، حين أفقتُ منه لأجد مسعود مشغول بالبحث عن سر هذا الوشاح الحزين على وجهها ، ليصل في النهاية إلى حالة السبي التي ربما تكون قد تعرضت لها ليلى ، ويتقدم أكثر بتفكيره حين يخطر على باله عرض مساعدته لها ، بل حتى استعداده ليكون طوع بنانها.

****

قبل ذلك ، وساعة كنتُ جالساً في مؤخرة الباص وعلى مسافة من مسعود كانت الصور التي تأتي منه تأتي في أكثر الأحيان مشوشة ، وحتى ما كنتُ في البداية احسبها منه . حاولتُ أن أجد تفسيراً لهذه الخيالات التي تناوشني حيناً وتقتحمني حيناً آخر ، ولم أجد تفسيراً

قريباً سوى أنها بقايا أفكار عالقة من ركاب كانوا هنا قبل ساعات أو قبل يوم . كنتُ أعرف أنه تفسير غير منطقي ، لكنني لم أجد ما هو أكثر منطقية منه وهذه الصور ماانفكت تعترض تفكيري ، وحتى توجهه أحياناً وتقوده معها للحظات قبل ان تنقطع وتغيب للحظات أخرى.

كانت الصور تأتي مشوشة وأحياناً تأتي مبتورة لكنها لا تغيب . وحين اغمضتُ عيني لأتأكد إن كان لتلك الصور علاقة بمشهد وسط الباص الذي يمتد أمامي ، وحين وضعتُ يدي على أذني لعل لأصوات وحديث مَن حولي علاقة ، وحين أغلقتُ انفي لعل لروائحهم أيضاً علاقة ، لم أجد من كل ذلك علاقة بما يأتيني ويتراءى امامي وحتى يعزلني عنهم احياناً لأسبح في خيال مختلف تماماً عن خيالي ، إلى أن ظهرت أول إشارة تفيد أن ما يأتيني ربما يكون من خيال مسعود ، ساعة وقف هو يسحب معطفه من الرف العلوي للباص ، فاهتزت الصور على غير عادتها ووصلتني اكثر وضوحاً . أخذتُ وقتاً أفكر فيه بشكل أعمق ، وفي خياله المتقدم عني بمسافات بعيدة ، وأتصور عُمق العلاقة التي تجمعنا وتتعدى شكل وتشابه الملامح بيننا ، وتتعدى حتى شعوري بوجوده المختلف معي في الباص دون كل الركاب.

لذلك قمتُ من مكاني ومشيتُ لأقترب وأجلس أمامه ، وكان الشيء المطمئن الذي وصلني منه هو شعوره براحة اقترابي منه ، وشعوري براحة اقترابي منه . قلتُ في نفسي ما زلنا أخوة وأصدقاء رغم الفاجعة التي منينا بها في الميدان والتي تجعل المراء لا يفر من اخيه وصاحبته وبنيه وحسب بل يفر حتى من ظله ، وقلتُ ايضاً لابد أن

نتصارح ونُقسِم الأدوار فيما بيننا ، ومنذ الساعة يجب أن نستفيد نحن الاثنين من هذا الانفصال الذي لا أعرف إن كان قد تم فينا أو تم بيننا ، وأنه بعد وصولنا لمكاننا لا بد الجلوس معاً وجهاً لوجه وممارسة حياة جديدة . قلتُ هذا في نفسي دون أن أعرف إن كانت تصله مثل هذه الأقوال مني أو لا تصل.

ساعة انتقلتُ من مكاني لأجلس هناك أمامه كان شعوره براحة انتقالي قربه قد دفعه يفكر حتى أن ينتقل من كرسيه ويجلس في الكرسي الخالي بجانبي . وصلتني هذه الفكرة منه بوضوح ، ورحبتُ بها ، بل وحاولتُ أن أفكر بترحيبي به بوضوح وأكرر التفكير ظناً مني أنه قد يصله ، وربما كانت ظنوني تلك صحيحة لأنه صار يتفاعل أكثر مع فكرة الانتقال إلى جانبي ، ولولا ليلى التي رهنته ليبقى في مكانه وجعلت منه أسيراً يجلس على كرسيه لكان قد وقف وجاء وجلس إلى جانبي منذ الدقائق الأولى.

لم احزن لتخليه عن فكرة المجيء والجلوس معي على نفس المقعد . رأيتُ في بقائه وفي اتصاله مع ليلى خير من أي عمل آخر . باركتُ له بإشارة تفكير صغيرة مني وجوده في مكانه ، وأكدتُ له مُفكراً أنني معه قلباً وقالباً فيما يُرضي ليلى.

****

حين اقتربنا من أول محطة وشعرنا بالباص تتمهل أكثر فأكثر ، التفتُ إلى الطبيب ورأيتُ على وجهه علامات الخوف . مط شفتيه في إشارة إلى انه لا يعلم ماذا يمكن أن يحصل حين ينزلون من الباص ، وملتُ أكثر نحوه وهمستُ له ان لا يخف فالأمر سيمر كما يمر ، وسوف يتقبله الجميع ، خاصة أولئك الذين وقفوا أمام ضد الخريطة

ونظروا لها ملياً ، لأنهم سوف يكونون مُعدين سلفاً لما قد يحدث في المحطة ، وكل مَن لم يمر على الميدان في اليومين الماضيين ولم ير شيئاً هو الآخر سوف يتقبل الأمر ، لأنه لا خيار سوى قبول ما قد نراه على أرض المحطة بعد قليل . ثم اضفتُ له ان هناك نوع ثالث ، وهم أولئك الذين حتى لو وقفوا أمام المقلوبة لساعات ولأيام وللعمر كله ، فلن يكون بوسعهم تقبل مشهد ما على السرايا ، بل أن هؤلاء الذين يقع تصنيفهم من الفئة الثالثة لن يستجيبوا حتى لو جاء ضد اكبر من هذا الضد وأخذهم من أرجلهم وثبتهم على رؤوسهم ، وأبقاهم لفترة كافية على رؤوسهم ، ثم بعد ذلك رفع يده عنهم على أمل أن يقفوا ويمشوا لوحدهم مقلوبين كما كل المقلوبين ، فإنهم يا طبيبي سيعودون فوراً ويقفون على أقدامهم ، وسوف يمسحون التراب الذي علق بشعر رأسهم ، وسوف يواصلون سيرهم بشكل طبيعي ، ذلك ان الخريطة الحقيقية محفورة في داخلهم ولا سبيل لقلبها ، اللهم إذا فتحوا عليها وقلبوها في داخلهم ، وهذه عملية معقدة وفرص نجاحها ضنينة جداً ، وكثيراً ما يموت اصحابها وهم تحت العملية ، لأن جذور الخريطة في مثل هكذا حالات تكون دائماً محفورة فيهم حتى النخاع.

كان الطبيب ينصت لي باهتمام حين اسهبتُ في الكلام عن النوع الثالث ، والذي أحسب أن مسعوداً واحداً منهم ، ومن ثم قد أكون حتى أنا واحد منهم ، ذلك أن مصيرنا مشترك في الخير والشر ، فأسهبتُ ومن حق أي واحد أن يُسهب في حديثه لو شعر انه في مأمن من ضد الخريطة ، وأنه يوم تمشي الناس على رؤوسها من حوله هو لن يمشي ، وساعة يشيرون له بأصابعهم من أسفل ويخاطبونه من أسفل سوف يظل يرمقهم ويشفق عليهم من أعلى ، ويوم يشيرون له

ان يتنحى عن ارصفتهم لأنه يربك حركة السير عليها ، سوف يتنحى عنهم قليلاً حتى يتعدوه ثم يواصل سيره خلفهم وهو مشفق عليهم.

كان الطبيب يميل أكثر نحوي ويصغي لي باهتمام بالغ والباص تبحث عن مكان تقف فيه ، وكان ذلك الاهتمام منه يشجعني أكثر على الكلام ، لكن وصولنا المحطة والطلب منا أن ننزل لقضاء جوائجنا والعودة بسرعة ، هو ما جعلني أقطع كلامي معه على أمل أن نتحدث لاحقاً إذا لم يحصل في المحطة ما قد يصرف الحديث إلى موضوع آخر ، خاصة أن مسعوداً قال أننا سوف نرى على الركاب ما لم نره من قبل ، وإن كل القصص والحكايات التي بدأت قبل أول محطة ، ولم تكتمل ، سوف لن تكتمل ، ذلك ان القصص والحكايات بين الركاب قبل المحطة ، سوف لن تكون نفس القصص ، وحتى لو أرادوا العودة لن يكون بمقدورهم العودة لها ، ولو حاولوا تذكرها لن يكون بمقدورهم تذكرها ، فما قبل محطة الركاب الأولى غير ما بعدها ، وأكد مسعود على الطبيب أن ينتهي من أي قصة أو من أي تفكير يكون قد بدأه قبل المحطة الأولى.

وقف الركاب جميعهم في مرة واحدة ووقفتُ معهم ، ولم يبقى في الباص أحد جالساً سوى مسعود وليلى ، حين ظهرا لنا أنهما لا ينويان النزول ، وخطر ببالي لو ابقى معهم . أغرتني وحدتهما داخل صالون الباص ، وشعرتُ بنفسي لستُ غريباً لأعكر صفو هذه الوحدة بين عشيقين ، بل وجودي بينهما قد يُفعِّل هذا العشق ويرقى به إلى مستوى أعلى ، وقلتُ في نفسي لا يعنيني ماذا يحدث للركاب في الخارج ، فأنا في مأمن وليذهب المنقلبون إلى الجحيم ، لكن الطبيب أخذني من قميصي وطلب مني ان ارافقه ، تمنعتُ في البداية لكنه

ألحّ وقال أنه يرغب لو أكون معه في مواجهة ما قد يراه في الخارج.

****

وجودي قريباً من مسعود في الباص مكنني من الولوج لرأسه والإطلاع على خواطره أكثر ، وتحسس خلجات نفسه أكثر ، والتعرف على آلية تفكيره أكثر ، وعرفتُ حتى بعض من تفاصيل الساعة التي وقفتُ فيها في الميدان وهو حينها ما زال ظلي . تمكنتُ من إعادة مراجعتها من خلال مراجعته هو لها وأنا أجلس قريب منه . استفزه المشهد ولاحقه داخل الباص ، ووجدته وأنا أقترب منه وأجلس في المقعد أمامه ما زال تحت تأثير حالة الحنق التي أصابتنا نحن الاثنين في الميدان ، والحقيقة التي تبينتها وأنا قريب منه أنه ربما ما كان لينفصل عني ويقف لوحده مقتسماً معي الحنق الكبير الذي عصف بنا ، أو ما كان هذا الحنق ليبلغ مدى أعلى فينا لو لم ليضعوا فكرتنا في غير المكان الذي حددته أنا بنفسي لهم . لم يكتفوا بسرقة الفكرة وقلّبها على رأسها وحسب ، بل أزاحوها عن مكانها ومشوا بها خطوات لتصبح فكرتنا المقلوبة هي مَن تشكل خلفية المنصة.

لا أنكر وأنا اقف قبالة المنصة والخريطة المقلوبة تشكل خلفيتها أنني شعرتُ بشيء يتحرك تحت قدميَّ . لم اعره أي اهتمام بادئ الأمر لأن مشهد خلفية المنصة كان قد مضى بي إلى مطارح بعيدة ، وحتى حين عاودت الحركة تحت قدمي ولفتتني عما هو أمامي لم أجد شيء . رفعتُ قدمي اليمنى ورفعتُ اليسرى وتنحيتُ خطوتين عن مكان قدمي ولا شيء ، دون أن أعرف حينها أن ظلي صار ينسحب أو يسحب نفسه مني ، وأنه سوف يمشي خطوات عني ليقف بين الناس مشكلاً كياناً مستقلاً بذاته ، ومقتسماً معي هذا المقدار الكبير

من الحنق الذي إن ظل فيَّ لوحدي فقد يودي بحياتي ، ولو أودى بحياتي فهذا يعني انه سيودى بحياته.

كان الدافع الرئيسي لفكرة الانفصال هي التخفيف عني والبقاء على حياتنا أطول وقت ممكن ، وبالفعل ، فالدقائق التي أعقبت الحركة تحت قدميَّ كانت مريحة بعض الشيء عن تلك التي أعقبت النظرة الأولى لخلفية المنصة ، ليبتعد على إثرها مسعود مسافة عني واشعر براحة وبخاطرة تداهمني منه يتمنى فيها لو تنقلب المنصة على رأسها فتعتدل بذلك الخريطة ويبقى مفعول الانقلاب سارياً على المنصة إلى يوم القيامة . هذه الأمنية أذكرها جيداً ولم اعرف في حينها كيف ولجت بالي إلا بعد ان جلستُ قريباً منه في الباص ، واستمعتُ له وهو يراجع أفكاره.

كان وقوفنا في الميدان مساء ، وتحديداً بعد صلاة العصر حين ظِل السرايا يغطي نصف الميدان ، ولم يكن بوسعي أن أتبين إن كان ظلي مازال يحاذيني وأنا تحت ظِل السرايا ، أو ذهب وانفصل وصار مسعوداً لوحده بين الناس . إذ كان ظِل السرايا كبيراً ويغمر كل ظلالنا الصغيرة ويخفيها عن الأنظار ، لذلك ساعة نظرتُ لأتبين مصدر الحركة تحت قدمي ما كنتُ لأتبين شيئاً ، وأرى كيف تمت عملية انسحابه وعملية تخلُّقة من ظِل إلى جسد . رفعتُ قدمي لأرى أسفل حذائي ، ورفعتُ حذائي الثاني ولا شيء ، وسألني مَن كان يقف إلى جانبي عما أبحث حين شاهدني أنزع الحذاء والجورب وأتفحص بطن قدمي ، وبعد أقل من خمس دقائق توقف كل شيء كنت احسه ، فلبستُ الجورب والحذاء ولم اعرف حينها انني بتُ بلا ظِل ، أو ان لي ظِلاً يقف لوحده ويفكر لوحده ويغضب لوحده .

والحقيقة لو عرفتُ كل هذا ربما كنتُ دخلتُ بين الواقفين وفتشتُ عن مسعود بن مسعود ، وربما أخذته من ذراعه وسحبته إلى مكان آخر ليس فيه أحد ، حتى يهدأ . فهو اين تكن استقلاليته يظل جزء مني ، وما يطربه حتماً يطربني وما يغضبه يغضبني ، وأي أذى يلحق به سوف يلحق بي ، ووجوده بين الناس وهو في هذه الحالة من الحنق ، وأمام المنصة المقلوبة من الداخل قد يُخرجه عن طوعه ويقوده إلى عمل ما لا تُحمد عقباه ، وعندها لاشك أن الرصاصة التي قد تصيبه ستصيبني وترديني قتيلاً معه حتى لو كنتُ على مسافة منه.

****

عند باب الباص والركاب ينزلون الواحد تلو الآخر وقفتُ وأدرتُ لفتة إلى مسعود وليلى . لم يبقى احد في الباص سواهما . وعند الباب كان واضحاً حتى لمن لا يعرفهما أن بينهما علاقة كبيرة.

كان الطبيب أمامي ونحن نهم بالنزول معاً ساعة رأيت مسعوداً يطلبه . نـادى عليه وأشـار بيده لكن الطبيب لم ينتبه ، في حين حركته أنا من كتفه ونبهته أن مسعوداً ربما يريده في امر ما ، فالتفت وتراجع خطوات عن النزول لأجد نفسي في مواجهة الباب ولا أحد أمامي انتظره أو أجعله ذريعة أنتظر بها . والحقيقة أنني ما كنتُ كارهاً لزحمة الركاب عند الباب وهم يتزاحمون على النزول ، خاصة منهم كبار السن الذين يأخذون وقتاً أطول في نزولهم . وساعة تراجع الطبيب خطر ببالي أن أتراجع معه ، وأعود . رأيتها فرصة وذريعة أعود بها ، فمن يدري ألا أجد فيها سبباً يبقيني مع مسعود ، خاصة إذا تفهمت ليلى نوع العلاقة التي تربطني بمسعود فلن يشكل وجودي خرقاً للوحدة التي قد يتفرد بها مسعود معها والركاب في

المحطة ، أما ما قد يظهر على بعضهم من بوادر انقلاب في المحطة على حد قول مسعود فذلك شأنهم.

خلق الطبيب مبرراً كنتُ أفتش عنه لأعود به لمكاني . شعرتُ وأنا عند الباب أنني ارتكبتُ خطأ في فكرة الخروج ، وكان يجب أن ابقى حتى لو انقلب الجميع على رؤوسهم في المحطة . كانت نظراتها لي وأنا عند الباب مرة بعد مرة كأنها تفتش عني أو عن شيء فيَّ ، أو كأنها تلمست شيئاً فيَّ . كل تلك كانت مبررات وذرائع خلقتها وأقنعتُ نفسي بها لأعود.

كانت غايتي هي الجلوس نحن الثلاثة لوحدنا في الباص . قلتُ في نفسي ربما تحسست في الشبه بيني وبين مسعود ما لم يتحسسه غيرها ، وأدركت من قبل أن أفصح لها أن مسعوداً هو ظلي وهو ما لم يدركه الركاب ، وقلتُ ايضاً ربما يجب أن نحظى باحترام كبير منها ، خاصة أننا تعرضنا للحرق بالنار ساعة رموا مسعود في وسط الكراتين التي حملها معه من شارع الرشيد ليحجب بها الخريطة عن أنظار المارة.

هذه القصة الأخيرة لا أتصور أن ليلى على علم بها إلا إذا كانت معنا في الميدان ، وشاهدت مسعوداً داخل لهب الكراتين ، وهذا يظل احتمالاً وارداً لأنني فقط أحسستُ أن لها اهتماماً بأشكال وابعاد الخرايط ، وحتى حين سالتها عن الخريطة المقلوبة على السرايا لم تجب بشيء ، بل تجاهلت سؤالي بشكل واضح وكأنها لم تسمعه.

كان مسعود في الميدان أكثر مني اشتعالاً بالغضب ساعة ذهب بعيداً عني إلى شارع الرشيد التجاري وجلب منه مجموعة كراتين فارغة ليحجب به الخريطة المقلوبة . كان يشعر أن من حقه أن يحتج

، فالفكرة له وليس من حق أي أحد تشويهها بهذا الشكل ، فذهب وجمع الكراتين واشترى سلماً واستأجر من الشارع ثلاثة من العمالة الأفريقية ليحملوا معه كل هذا إلى الميدان ، حتى إذا وصل وشرع في الصعود على جدار السرايا ليُخفي الخريطة المقلوبة عن الأنظار ، جاءه الحرس وكبلوا يديه خلف ظهره ، وأشعلوا النار في الكراتين وفي السُلم ورموه فيها . في ذلك الحين كنتُ انا على مسافة منه ومن الخريطة أتأمل الصورة عن بُعد وأُقدر حجم التأثير الذي ستحدثه في نفوس الناس.

لم أستبعد أن ليلى كانت في الميدان ، وربما رأتْ الحرس وهم يُكبرون النار ويلقون بمسعود فيها ، وربما توقعته قد صار رماداً ، لكنها فوجئت به في الباص ، وأعجبت به لأنه رجل غير عادي ، ولو كان عادياً لما كان في الباص . مثل هذا الاحتمال الذي يفترض وجود ليلى في الميدان ليس مؤكداً ، لكنه محاولة بحث عن منطقية الحظوة التي يحظى بها مسعود عندها . قلتُ في نفسي لو كنتُ قريباً منه ربما لسعتني ألسنة النار لكن المسافة بيننا كانت بعيدة ، وحتى ذلك الحين لم أعي أن مسعوداً انفصل وصار لوحده ثم صار في النار ، بل حتى وأنا في الباص لم أعلم بما حدث له في تلك النار التي رأيتها عن بُعد ، إلا ساعة جلستُ أمامه وصارت تصلني خواطره بوضوح ، وصار هو يستعيد من حين لآخر ما حدث معه وكيف صار يشعر وهو يسبح وسط ألسنة اللهب.

لو كنتُ على علم ، ولو ذهبتُ معه للرشيد ، ولو جلبتُ معه الكراتين ، ولو ألقيتُ معه في النار لما نجى هو ، أو على الأقل لا أعرف شكل المصير الذي سوف نواجهه معاً في وسط النار ، لكن

الأكيد أننا في أحسن الظروف سوف تلحق بنا أثار حريق من الدرجة الأولى والخطيرة.

حين عرفتُ انه كان في النار شعرتُ بذعر وخوف شديد ، وباركتُ قدرته العظيمة ، خاصة حين صار يستعيد بذاكرته وهو على كرسيه في الباص أصوات الناس التي كانت تهتف حوله « لا ترحم من خان يا قايد - حرقا في الميدان » . كنتُ على مسافة منه وأنا أسمع مثل هذه الهتافات وألسنة النار تتعالى مع هتافاتهم ، وحين استعادها هو في الباص وسمعتها منه مخلوطة بطقطقة النار وزفيرها العالي ، عاودتني تلك الرهبة والتعاطف الكبير الذي ابديته في الميدان مع مَن كان في النار ، دون أن أعرفه.

****

عدتُ أنا والطبيب معاً . تركته يمشي أمامي في الممر الضيق الذي يفصل مقاعد الباص وأنا خلفه . كان مسعود الذي أشار له يجلس في منتصف الممر تقريباً ، فتركتُ الطبيب يسبقني وصرتُ اتعقب خطاه . قلتُ في نفسي لا ضير لو ساءلتها إن كانت تأكدت من نوع العلاقة التي تربطني بمسعود ؟! وفكرتُ ايضاً أن أصرف النظر عن هكذا أسئلة التي لا طائل من ورائها ، ولا داعي للأسئلة المباشرة التي قد تحرجها ، خاصة أنه بدى واضحاً انها امرأة استثنائية ولا يصح الاقتراب منها أكثر وسؤالها إن كانت تعرف أو لا تعرف وترك الأمور تجري لوحدها بشكل انسيابي سيكون أحسن ، ثم أنه سواء عرفت ليلى وآخرون أو لم يعرفوا لن يغير في الأمر شيئاً ، ولا أتصور أن مسعوداً سوف يعود لحالته القديمة معي ولصيقاً بي ويتبعني ويتمدد ويسبقني كما كان ما لم تعيده فرحة عارمة كذلك

الحزن العارم الذي تعرَّم علينا في الميدان ، والمهم الآن هو كيف السبيل لبقائي وجلوسي بينهما بطريقة لائقة ، وإذا كان البقاء معهما غير لائق فعلى الأقل أن نعرف من مسعود شكل العمل الذي يجب أن نقوم به في حالة ظهرت بوادر ضد على الكثير من الركاب خارج الباص على أرض المحطة ، وهل يمكن مساعدتهم أم نتركهم يواجهون قدرهم لوحدهم . كنتُ أعتقد أن الاستعانة بقدرة مسعود على رصد ما قد يحدث وما يجب القيام به هو أمر يجنبنا الكثير من التعب ، خاصة أنني والطبيب قد نتفاعل بشكل كبير ومبالغ فيه مع أي مستجد ، في حين أن تحذير مسعود للطبيب مما قد يحدث على ارض المحطة هو بمثابة تنبيه لأخذ الحيطة والحذر.

كل هذا مرَّ في بالي في لحظات وأنا خلف الطبيب إلى حيثُ يجلس مسعود وليلى . شيء آخر لا أستبعده وهو أن مسعوداً ربما يرغب في لفت نظر الطبيب قبل نزوله إلى أنه رجل دائم السفر من طائرة لأخرى ومن مطار لآخر ، ومثل هذه الشريحة المسافرة بين البلدان طيلة العام يجب عليها أن تتعلم كيف تنقلب وتعود لطبيعتها كلما عادت وسافرت ، وفرصة وجود بوادر انقلاب على أرض المحطة قد تكون مناسبة لأجرى تمرين يبادر بانقلاب ، لأنه لابد لمن يهوى السفر أو حتى لمن تفرض عليه طبيعة عمله السفر من وقت لآخر ، أن يستعد مبكراً ، لأنه في يوم من الأيام سوف تركب أنت أيها الطبيب من مطار طرابلس وتصعد سُلم الطائرة وأنت على رأسك ، ثم ما إن تصل أول مطار في الخارج سوف تضطر للنزول من سُلم الطائرة على قدميك . مثل هذه العملية تحتاج لتمارين مكثفة تمكنك من اتمام دورة الانقلاب بـ 180 درجة أخرى حتى تعود وتقف على

قدميك ، فتدخل مطارهم وتقف أمام باب التفتيش وتدخل تلك المدينة على قدميك كما البشر هناك ، وتبقى في مهمة عمل لأسبوع بشكل طبيعي وعادي جداً تتكلم فيه من فمك الموجود في الأعلى ، وتنظر بعينين من أعلى ، وتشم من فوق . ويوم تُكمل مهمتك وتحزم أمتعتك وتعود وتركب الطائرة عائداً على بلدك ، لا شك أن المسافة التي ستمضيها في الجو سوف تكون مسافة اعداد وتحضير نفسي للعودة والانقلاب من جديد.

في الطائرة وساعة تقوم المضيفة إبلاغ الركاب أنهم باتوا داخل الأجواء الليبية ، هي في الواقع تود ابلاغهم أنهم باتوا داخل الأجواء المقلوبة ، وأنهم باتوا على مقربة من الهبوط على رؤوسهم ، وأن عليهم ان يربطوا أحزمة الامان بشكل مقلوب حتى تتم عملية هبوطهم بشكل سهل ودون أية اضرار ، وكل مَن لا يربط حزامه بالشكل المشار إليه في الإعلان فأنه سيتحمل المسؤولية لوحده ولا علاقة لشركة الخطوط بما قد يحدث له . وحين تقوم المضيفة بتكرار النداء مرات عدة ليس الغرض منه اسماع مَن لم يصله النداء بل محاولة اقناع أولئك الركاب الذين قضوا فترة طويلة في الخارج ، وخاصة الذين خرجوا من البلاد قبل انقلاب الشارع فيها ، ويلزمهم تنبيه متكرر وبصوت عالٍ يقنعهم بضد مقبلون عليه ، وأن شركة الخطوط ما كانت لتكرر النداء مرات ومرات لو لم تعلم حجم الضرر الذي سوف يلحق بكل مَن يجهل أو يتجاهل الصورة بعد دقائق ، لذلك كان اعدادهم نفسياً وجسدياً لأي اصطدام على الأرض هو ضرورة يمليها الواجب ، وإلا فإن حالات اضطراب وارتباك كثيرة قد تحصل في ممرات المطار ، حين تغص بمن يتعثر ويقع ارضاً ، ناهيك

عن حقائبهم الصغيرة المصاحبة لهم على ارفف الطائرة وصعوبة التعامل معها ما لم يحاطوا علماً بآلية جديدة لسحبها والخروج بها بسلام.

القضية معقدة بعض الشيء ، وتحتاج شروح كثيرة لذلك لم يدخل مسعود في هذه التفاصيل حين اكتفى برسم الرجل المقلوب على الورقة وناولها للطبيب . كانت الورقة صغيرة ولا تتسع للشرح ، ولا أعرف وأنا عائد بصحبة الطبيب في الممر بين المقاعد ، إن كان مسعود يود الإشارة لشيء من هذا حتى لا نفاجأ بمن ينقلب ويدخل دورات المياه في المحطة على رأسه.

****

أنا في الحقيقة لا أعرف نوع الحساسية التي كان مسعود يستخدمها في استشعار بواطن الناس من خلال نظرة إلى وجوههم . كانت تكفيه نظرة ، وكان في بعض الأحيان لا يحتاج حتى إلى نظرة ، وكم كانت تلك الحاسة تعوزني حتى يوم كان هو يلازمني ويتحرك معي ويتبعني خطوة بخطوة ، واليوم وبعد أن صار لوحده أخذها كلها معه وتركني كالأعمى في وسط الناس . في الميدان شعرتُ بفقدان البصيرة تماماً والتي كانت تساعدني في تفرّس وجوه الناس ولو بشكل طفيف ، لكنني لم أعرف حينها أنها ذهبت مع صاحبها . حتى أولئك الذين كانوا حولي وأخذتُ انطباعاً عنهم ذهب ذلك الانطباع مع مسعود ، وبتُ في وسطهم كأنني في وسط معرض الشمع في لندن . لم أكن صاحب فراسة لكن على الأقل كان قليلاً منها معي أو كان مسعود يمدني بقليل منها يوم كان يلازمني ، وبعد أن ذهب وصار رجلاً مستقلاً لوحده ذهب وأخذها معه . ولم يكن لدي خيار في أمر

انفصاله ، وما كنتُ أعرف أن الحدس والفراسة وأشياء اخرى مماثلة هي له وليس لي ، بل ما كنتُ اعرف أنني كنتُ اشوش عليه إلا ساعة انفصل ليتضاعف ويصفو حدسه بشكل غير مسبوق . لا شك انه أدرك حجم التشويش الذي كنتُ أمارسه أمامه ، وحجم الصفاء الذي تجلى له فور تنحيه عني ، ولا أعرف لو خيروه بين العودة كما كان أو البقاء حيثُ هو في مكانه وشكله الجديد ايهما سيختار . وعلى أية حال لو لم يستقل بذاته لما استطاع رؤية صورة محتملة على وجه طفل آخر لم يبلغ حتى العاشرة من عمره.

كان هذا الطفل يأتي من مقدمة الباص ويلعب مع ولد ليلى مرة بعد مرة . ولا أعرف إن كان مسعود قد استوحى الصورة من وجه الطفل ، أو فات من خلال وجهه ونظراته الصغيرة إلى الصورة التي تبعد عنا بسنوات ، لكن الأكيد أن الصورة وردت على بال مسعود والطفل يقف أمامه ومن ثم وردت إلى بالي.

كان الزمن الذي يفصلنا عن زمن الصورة ليس قليلاً ، حتى أني كنتُ أشعر قد لا أكون موجوداً في زمنها . فرحلة الباص هذه كانت في عام 1976 وبالتحديد في ابريل 76 ، ومظاهر الصورة توحي انها سوف تكتمل تدريجياً بعد منتصف الثمانينيات ، وبدأ واضحاً أن العمل كان مكثفاً خلال هذه الفترة حين أنجز مشروع الصورة في زمن قياسي ، حتى أن شكاً ساورني في تاريخ الإنجاز الذي جاءني من مسعود . هو أيضاً ساورته شكوك في سرعة الانجاز لكن وجه الطفل لا يكذب ، وحدس مسعود لا يخيب.

هذه الصورة ساعة عدتُ خلف الطبيب كانت هي الأخرى على جدول أعمالي . قلتُ في نفسي لو أتيحت لي الفرصة للبقاء مع مسعود

وليلى لوحدنا في الباص قد أفتح أو أطرح موضوع الصورة للنقاش ، وهذا الطرح لو حصل قد يفكك الصورة أكثر من على وجه الطفل الذي ظل مع طفل ليلى ولم ينزل للخارج مع ذويه . كانت الخريطة قادرة على التأثير عن بُعد على الكبار وعلى الصغار معاً ، وبعد قلّبها على رأسها فوق جدار السرايا باتت أيضاً قادرة على التأثير عن بُعد على الكبار وعلى الصغار معاً ، ومسعود ما كان ليستوحى من وجه هذا الطفل لو لم يكن الأخير قد تشبع منها بصحبة أبويه قبل يومين في الميدان.

خال لي لحظتها أن مسعوداً قد مرر نظرة عجيبة وصلتْ حتى مؤخرة رأس الصغير وهو يتفرس في عينيه ، ليتحسس هناك في المؤخرة الصغيرة بذرة مقلوبة على رأسها ما تلبث أن تغدوا شجرة مقلوبة على رأسها . كان شيئاً فظيعاً وأنا أتصور شكل البذرة التي ما كانت أقل خطورة من جرثومة في مؤخرة رأس الصغير ، ولا أعرف إن كان بمقدور ليلى ومسعود تمرير نظرة أخرى تكون أكثر قدرة من الذي أودع الحبة في أقصى رأسه ، خاصة أن الطفل ظل بينهما ولم يهبط مع والديه.

****

حين لم أجد فرصة للبقاء معهما في الباص فكرتُ أن أدعو مسعود للنزول معنا إلى المحطة ، وهناك قد اسحبه على جنب ليقول لي إن كان يعلم يوم طلبنا منهم تعليق الخريطة على السرايا انها سوف تزرع بذرة صحيحة في اذهان المارة صغاراً وكباراً ، أم أن صورة البذرة لم يرها ويعرفها ويتحسسها إلا بعد أن وجدها مقلوبة في مؤخرة رأس الصغير.؟! لكن مسعوداً لم يتح لي فرصة الحديث أو

أي شيء ، حين انشغل هو والطبيب في فحص الصغير المصاب بالبذرة المقلوبة .

كانت الإصابة لمن يدقق النظر جيداً في عين الطفل تبدو كنقطة صغيرة وبعيدة وراء زجاجة العين.

وضع الطبيب صناتته على أكثر من مكان من جسد الطفل ، ليرفع بعدها رأسه مؤكداً لنا أن كل شيء في داخل هذا الصغير بات ضده ، ولا شيء يوجد في مكانه الذي وضعه الله فيه . حتى الكبد والطحال والمعدة وكل شيء أخذ مكانه الجديد استعداداً وتسهيلاً لما هو قادم . ولا يتصور الطبيب أنه ثمة أمل في إعادة كل هذه الأعضاء إلى وضعها الطبيعي ، ذلك أن الشرايين والأوردة التي انتشرت لتغذي كل هذا قد انتشرت في مواضعها الجديدة على يمين ويسار جسد الصغير.

كان الطبيب يُقدر حجم المأساة التي طالت حتى الأطفال من جراء ضد الخريطة على جدار السرايا ، وكان يريد أن يختبر قدرة مسعود وليلى ، حين اخذ الصغير ووضعه معهما ليجمع بعدها أدواته في الحقيبة ، ونقف ونمشي معاً إلى باب الباص ومنه إلى الخارج.

لا أنكر أن رغبة كبيرة تزايدت في داخلي للبقاء ومشاهدة آخر فرصة أمام الصغير ، وهل سوف تتم مداوته عبر ملاحقة البدرة المقلوبة في مؤخرة الرأس أم مداواته بطريقة أخرى . خرجتُ ولا أنكر أن مسعوداً طلب مني بوضوح أن أتبع الطبيب حين تلكأتُ في اللحاق به . قلتُ في نفسي لابد أنه يستخدمني كأداة جس يلقي بها في الخارج ليعرف بها الذي يحصل بعد أن إنشغل هو بأمر الطفل ، ولابد أن الصور التي سوف تدهشني في الخارج سوف تصله تباعاً

. وعلى أية حال لم أمانع ساعة رأيتُ إشارة مسعود لي بأن ألحق بالطبيب . استأذنتُ منها بأدب يليق بها ، ومسحتُ على رأس الصغير وعلى مؤخرة رأسه اكثر حيثُ توجد البذرة المقلوبة ، ودعوتُ له في سري بالشفاء.

لأول مرة تحدث لغة مشتركة بيني وبين مسعود حين أشار لي فمشيتُ حسب إشارته . لم يتردد بل لوَّح بيده بشكل عفوي تنم عن علاقة كبيرة تربطه بي ، في حين تجاوبتُ انا مع طلبه أيضاً بشكل ينم عن هذه العلاقة ، وكان ذلك مبعث سرور كبير لي رغم حسرتي ورغبتي في البقاء .

طريقة التجاوب التي تمت بيننا بإشارة رأيتُ فيها أبجدية جديدة قد تربطني أكثر بمسعود إذا قُدر لنا أن نبقى عمراً أطول مفصولين ، وقلتُ وأنا أمشي عنه ربا لهذه الإشارة أن تتوالد وتتكاثر وتشكل قاموساً لغوياً فيما بعد . ما كنتُ أعرف حينها أنه لم يتبقى على عُمر مسعود سوى ساعتين أو أقل من ذلك ، وكل ما ورد على بالي أنه سوف يستبد الغضب بالكثيرين ممن يقفون في الميدان ، وسوف تنفصل الكثير من الظلال عن أصحابها جراء هذا الزعل ، ومن تم قد يكون هؤلاء في حاجة إلى لغة مشتركة بينهم وبين ظلالهم أكون أنا أول مَن وضع ابجدياتها.

عند الباب أدرتُ لفتة قصيرة وأخيرة إلى مسعود وليلى فعاود إشارته لي ، وقلتُ للطبيب الذي نزل ووضع قدمه على الأرض لو عدتَ أيها الطبيب حالاً للكشف على الصغير لوجدتَ على الأقل الكبد والطحال قد عادا إلى مكانهما . لم يكن معي ما يفيد ويؤكد هذا الكلام ، سوى أن مسعوداً يرغب لو تتاح لهما فرصة أكبر للتفرد

بهذا الصغير ، حين شعرتُ بإشارته لي عند الباب تقول هذا ، ورأيتُ على وجهه من عند الباب صورة طفل بات يثماثل للشفاء ، فطمأنته بإشارة من رأسي أنني نازل ونزلتْ.

****

كان السائق يدعو الركاب أن لا يتأخروا ، وأن يقضوا حوائجهم بسرعة ويعودوا لأن ضوء السيارة ضعيف جداً ولا يمكنه القيادة في الليل ، وأن المسافة المتبقية طويلة ، وكان ينادي بأعلى صوته وأنا والطبيب نضع أقدامنا على الأرض ولا هَم لنا سوى مشاهدة بوادر انقلاب أشار لنا عليها مسعود ، وأكد أننا سوف نراها بوضوح على بعض من الركاب.

تركنا مسعوداً يهمس في أذن الطفل بأنك سوف تعيش شبابك يا صغيري في زمن إذا أوقفك شرطي المرور وطلب منك أن تركن سيارتك على اليمين فعليك أن تركنها على اليسار ، وإذا قال لك اذهب يا محترم فاحسب انه قال لك اذهب يا مجرم ، وإذا وقفتَ يا صغيري في يوم من تلك الأيام أمام وكيل النيابة بتهمة سرقة المال العام فإياك ثم إياك أن تنكر السرقة تماماً ويكون مصيرك السجن المؤبد ، بل ما عليك إلا أن تعترف بها وتزيد عليها حتى تضمن البراءة أو على الأقل الخروج بكفالة ، وإذا رأيتَ يومها مَن يدوس على وردة فاعلم أنه يدوس على عُقب سيجارة ، وإذا رأيته يلقي علبة فارغة في عرض الشارع فاعلم أنه ينثر وردة في عرض الشارع ، وإذا رأيت شيئاً من مياه سوداء تجري في نهاية الشارع فاعلم أنها شيء من مياه أمطار وقعت على أول الشارع.

لا تقلق يا صغيري.

وما لم يتم شفاؤك على يدنا فما عليك إلا أن تأخذ ضد الحياة التي يعرفها العالم وتمشي فيها ، وإلا فإنك سوف تصطدم بهم في الشارع ، وهم كُثر ، وقد يصل عددهم إلى شعب كامل.

سمعته يصور له بوضوح ، أن كل ما هو مرفوع في الشارع من عبارات وشعارات وعناوين وأسماء محلات وكل ما هو مكتوب هو في الواقع معكوس ، أو مكتوب بشكل معكوس للواقع ، وإذا قرأتَ يا صغيري لوحة مكتوب عليها ما لا يعكس الحقيقة فينبغي عليك إما أن تصححها بما يعكس ذلك ، أو تقوم بالتبليغ عنها إلى الجهات المسؤولة لتأتي هذه الجهات وتقوم بالمهمة ، وإذا صادفك أحد في الشارع يضع سُلماً على قدميه ويرفعه إلى أعلى مع الجدار ، فمن غير المعقول أن تمشي عنه وتتركه يصعد عليه ، لأن هذا الرجل حتماً يجهل الكيفية السليمة لتثبيت السُلم ، والطريقة الآمنة للصعود عليه ، وأن هذا الجهل غالباً يكون ناتجاً عن غربة طويلة قضاها الرجل خارج البلاد ، ويوم عاد لم يُعَلمه أحد أو حتى لم يُعْلمه أحد أن السُلم هو أول المقلوبين.

خالت لي كلمات مسعود هذه لطفل صغير بالكاد بلغ العاشرة ككلمات ترهيب ترغمه على العودة ، في حين طفقت ليلى تعمل بطريقة أخرى . لكنني ما عرفته فيما بعد أن مسعوداً ما كان يفعل شيئاً سوى انه يطالع ويقرأ في ملامح الطفل بصوت مسموع ، في حين صارت ليلى تعمل في صمت والصغير المستسلم ينظر في عينيها ويشعر بشيء صغير يتحرك في قعر رأسه . حتى ساعة عاد الركاب وصعدوا وأخذوا مقاعدهم ظل هذا الصغير مع مسعود وليلى لوقت ، وساعة عاد لأبويه في مقدمة الباص وأخذ كرسيه غرق في

نوم عميق لم يستيقظ منه إلى على صوت حادث السيارة.

****

إذا ما حدث وصدقتْ نبوءات مسعود ، وانقلبت الناس على رؤوسها ، فإن عودتهم إلى وضعهم الطبيعي الأول هو أيضاً أمر يحتاج إلى تأمل ، فوقوفهم على الرأس هذا يعني أنهم قاموا بدورة 180 درجة ، وعودتهم إلى وضعهم الأول سوف لن يتم إلا بواحدة من عمليتين ، الأولى وهي أن يكملوا دورة إلى 360 درجة ويقفوا على أقدامهم ، أي أنهم يقوموا بنصف دورة أخرى إلى الأمام قدرها 180 درجة ، وهذه العملية محفوفة بالمخاطر ، ولا أحد يضمن نتيجتها خاصة أن النصف الأول من الدورة أوقفهم على رأسهم ، والنصف الثاني حتماً سيُتلفهم تماماً ولا يعودوا يتحركون . والعملية الثانية هي عودتهم للوراء ، أي أنهم يعودون أدراجهم على خطوات الانقلاب التي أخذتهم خطوة بعد خطوة ، وعندها سوف لن يعودوا ويقفوا في زمن واحد ، بل الزمن الذي يأخذونه في وصولهم إلى الوضع الطبيعي سوف يتفاوت من واحد لآخر ، ذلك أن مَن يستغرق أقل زمن ليس مَن يملك لياقة بدنية عالية ، بل مَن يملك ذاكرة قوية تعيد له صورة الخطوات التي اخذته من وهو واقف على قدميه إلى أن وقف على رأسه . وسواء عادوا ووصلوا في زمن واحد أو تفاوت الزمن بينهم لا يهم ، المهم أن يصلوا في النهاية ويقفوا على اقدامهم . لكن المشكل الكبير لو بقيَّ المقلوبين مدة طويلة وأكثر مما ينبغي ، وظلوا يتحركون ويمشون ويعيشون على رؤوسهم زمن أطول من اللازم ، وحفر ذلك الزمن الأطول شكل الضد في داخلهم وعلى شرائح جيناتهم . والأشد سوء وتعقيداً هو لو وُلد جيل ضد على رأسه

من بطن أمه ، ومثل هذه الحالة لن تحصل إلا إذا حفر الانقلاب شكله جينياً ، وورثت الأجيال هذا الجين من أبويها ، عندها سوف لن تلد الأمهات سوى ضدها ، وكل مَن يولد بوضعه الأول الغير مقلوب ، سوف يُعتبر مولود معاق وينبغي وضعه وتأهيله في مراكز تقيمها الدولة خصيصاً ليتم فيها قلّب المولود مبكراً على رأسه قبل أن يكبر ويشتد عوده ويكون عصياً على الانقلاب.

هذا التطور الجيني سيتم حتماً إذا ما طال عمر المقلوبين على رؤوسهم كثيراً ، وسوف يولد جيل وأجيال من بطون أمهاتهم مقلوبين ، وعندها حتى لو حدث شيء خارق للعادة ، ووقف هذا الخارق للعادة بطوله أمام جدران السرايا الحمراء في طرابلس ، وصعد وأصلح الخريطة وأعادها إلى وضعها الطبيعي ، وصار الشمال شمالاً والجنوب جنوباً وشرقاً وغرباً كما كل أوطان العالم ، لن يكون بمقدور هذا الخارق للعادة اصلاح وإعادة الأجيال التي وُلدت مقلوبة على رأسها لتقف على قدميها.

بل حتى لو جاء هذا الخارق للعادة بمن يساعده ويكون أكثر مهنية منه لن يفعل شيئاً ما لم يأخذ الجيل دورته الطبيعية ، لتولد بعدها الأجيال أقل ضد بشكل تدريجي ، إلى أن يصلوا إلى الجيل السوي والمعتدل على قدميه ، ومن تم تُشرع الأمهات في ولادة أجيال مستوية كما كل أمهات العالم ، ليظهر على إثرها الشارع بشكل مستوي ومعتدل كما كل شوارع العالم.

هذه الصورة السوداء التي وصلتني من مسعود وهو يتأمل عين الطفل ويُثبت النظر في البذرة المقلوبة وراء العين ، وصلتني وهو يفترض زمناً يتم فيها انقلاب الجينات على رؤوسها أولاً ومن تم

يرث الجنبن ذلك ويظهر مولوداً مقلوباً من بطن أمه.

يرى مسعود أنه إذا لم يدُم ضد الخريطة أكثر من جيل فلن ينتقل إلى الجين . وعندها لو جاء الخارق للعادة لن يجد صعوبة في اصلاحهم وتعديلهم على قدميهم ، ولن يمضي وقتاً طويلاً حتى يعودوا كل المارة يمشون ويذرعون الشوارع على اقدامهم ، وتعود كل الأشياء المقلوبة في الشوارع إلى اشياء غير مقلوبة ، وكل مَن مازال لا يستطيع المشي لوحده في الشارع على قدميه يقوم مَن يمشي بجواره بمساعدته . أما إذا تجاوز الجيل والجيلين فهذا يحتاج على تدخل إلهي.

****

نزلتُ أنا والطبيب إلى الخارج لنرى ماذا حصل أو سيحصل للركاب ، أو على الأقل ماذا حصل لأولئك الذين مروا على الميدان في اليوميين الماضيين وحضروا احتفالاً وخطابات في المنصة . توقعتهم ليسوا كثيرين ذلك أن أصوات الجمهور التي حضرت الاحتفال وكانت تصلني وأنا في غرفة الفندق ليست بالكثيرة ، وإذا أخذنا بالنسبة والتناسب فمَن معنا في السيارة لن يكونوا جميعهم بل نسبة قليلة من هؤلاء القليلين في الميدان يوم الاحتفال . مرتْ أمامي في ثواني صورة الغرفة ونافذتها التي كان يصلني منها بعض ضجيج الميدان . تذكرتها وتذكرتُ أنني لم اعرف حتى ذلك الحين أنهم علقوا فكرتنا على جدار السرايا ، وأنهم قلبوها على رأسها ، وأنهم جعلوها خلفية للمنصة.

قلتُ بصوت مسموع في الغرفة سوف أذهب لزيارة الميدان بعد يومين من الاحتفال . عندها يكون كل شيء انفض وعادت الأمور إلى

مجاريها . كنتُ أسمع الخطابات وأتحدث مع نفسي بصوت مسموع في الغرفة دون أن أعرف أن مسعوداً يسمعني ويكاد حتى يرد عليَّ.

بعد يومين سوف أذهب لأرى إن كانوا قد نشروا فكرتي على السرايا وحيثُ أشرتُ لهم ، أم أنهم لم يهتموا بها وركنوها في الأدراج ونسوها . وتساءلتُ أيضاً عن لو وجدتها كبيرة على جدار السرايا أكبر من كل الناس الذين حضورا الاحتفال والذين لم يحضروا . خلتها والقذافي يخطب في المنصة كيف تقوم هي بتصحيح عباراته المغلوطة ، حين تعترض خريطتي الكبيرة كلاماً مقلوباً قبل ان يصل آذانهم وتقوم بتصحيحه وإعادته بشكله الصحيح ، ليلج أسماعهم ورؤوسهم مستوياً . بل حتى الدعوات التي صار يرددها ويُصعّد من ترديدها رويداً رويداً ، تصورتُ يومها أن خريطتي ستُقيم ضداً ضدها يعترضها ليُبقي كل شيء في الشارع كما هو.

تمددتُ في غرفتي في ذلك المساء وأنا أسمع بعض مما يصلني من خطابه عبر مكبرات صوت انتشرت على طول شارع المختار ، وكان مسعود قد دخل معي للفندق ، وتوارى إلى جانبي في ظل المبنى ، ودخل معي الغرفة وصار يسمع ويتتبع ما يصل من الخطاب عبر مكبرات الصوت ، ولا أعرف حينها إن كان استشعر شيئاً وعلم ما لم أعلمه أم أن وجوده إلى جانبي حد من استشعاراته وأبقاه فقط ظلاً لي.

ما حدث فيما بعد كشف لي أنه لا يعلم شيئاً ، ولا يعرف أن الفكرة قد قلّبت على رأسها ، وأنها صارت خلفية مقلوبة تؤكد ما تقوله المنصة وتزيد عليه . والحقيقة لم يكن في الغرفة تلفزيون يمكن أن نرى من خلاله الاحتفال المنقول على الهواء ، ونرى حلمنا قد تم قلَبه

على رأسه وصار حلماً آخر لا يُعبر سوى عن حلم مقلوب على رأسه إلى أسفل وقدميه إلى أعلى.

لم يخطر ببالنا مرة أنه يمكن قلّب الأحلام لتُعطي أحلاماً مقلوبة على رأسها ، تماماً كما يمكن قلّب اتجاه أي رمح ليُعطي هدفاً معكوساً للرمح ، وإلا لكان مسعود قد انتفض وانفصل عني في الغرفة ، ومَن يدري عندها أن لا أراه يتجسد قريباً مني داخل الغرفة في كيان مستقل بذاته ، وأتتبع عملية تخلّقه التي تمت وصنعت منه مسعوداً بن مسعود ، وأعرف بدايات هذا التخلق إن كانت على هيئة دخان ثم نفخت فيها الروح والجسد ، أم أن الظل الذي كان مطروحاً على الأرض وقف فجأة وصار شخصاً آخر موازياً لي بكل بساطة.

****

تركتُ الطبيب ينزل أمامي من باب الباص ومازال في داخلي رغبة العودة ، بل أن الرغبة عند باب الباص صارت تستدعي مبررات منطقية لها ، كان أهمها أنه من حقي مشاركة مسعود في ليلى ومن حقي حصة أكبر منه ، وأغلب الظن ما طلب مني الخروج إلا ليستفراد بها . شعرتُ عند الباب والطبيب قد هبط إلى أسفل أن مسعوداً هذا يجب أن يقف عند حده ويلزم حدوده ويعرف انه مجرد ظل لي ، وأنه لولاي لما صار أصلاً في هذا الوجود ، ليأتي اليوم ويشير عليَّ أن أخرج مع الطبيب ويبقى هو بصحبة ليلى . هذا شيء في الحقيقة أزعجني وأشعرني بغبائي وإلا كيف أستجيب له . كان يجب ان اقف وألزمه حده أمامها ، حتى لا تغتر به وتظنه شخصية مستقلة يمكن لها أن تحب وتُحب . كان يجب أن اقول لليلى حتى في وجود الطبيب أن هذا الذي يغازلك هو كيان مشتق مني وأنني

بمقدوري أن اعيده لي إن اردتْ . ولكن هذه الأخيرة غير متأكد منها ، ولا أعرف إن كان بمقدوري إعادته أم لا ، وأياً يكن الأمر ، فمجرد فضحه سوف تُجرده من أشياء كثيرة ، وسوف تعيد ليلى النظر في أي علاقة معه دون الرجوع لي.

حسم سائق الباص أمر عودتي أو حتى التفكير فيه حين جذبني من ذراعي إلى الخارج ، وصاح في وجهي أن لا أتأخر لأنه لن ينتظر أحد بعد ربع ساعة ، وكل ما سيفعله أنه سوف يزمر ثلاثة مرات وبعدها سيمضي وليس مسؤول عن أي واحد يتخلف . كنتُ أعرف أن كلامه هذا مجرد كلام فقط ، لكن صيحته في وجهي وتأكيده بأنه لن ينتظر أحداً بحجة أن ضوء الباص ضعيف ، وهو يود وصول مكانه قبل الليل ، جعل عندي نية في جدل قد ينسيني حسرتي وشعوري بالغباء ساعة نفذتُ أمر مسعود . فحاولتُ أن أُحَذر السائق من مغبة ترك أي واحد هنا ذلك أننا من حقنا نحن الركاب مقاضاته ووضعه في السجن ، لأكتشف بوادر ضد قد ظهرت عليه ساعة رد عليَّ قائلاً أنه من حقه أن يقاضينا نحن الركاب ويضعنا جميعنا في السجن إن أراد ذلك ، لكنه لا ينوي فعل ذلك ، وأنه لا يرغب سوى في الوصول قبل الليل لأن ضوء السيارة ضعيف . سألته إن كان قد مر على الميدان في اليوميين الماضيين فأجاب بنعم وأضاف أنه حضر الاحتفال . وسألته عن الخريطة على جدار السرايا فأجاب أنه شاهدها.

لا يريد الحديث طويلاً حين دفعني إلى الخارج وعاد لينادي على مسعود وليلى . رأيته يعود ويصعد إلى الباب ويقف في بداية الممر ويخاطبهم بشكل مباشر أنه لن ينتظر أكثر ، فعدتُ أنا أيضاً لأرى إن كانا قد وقفا من مكانهما أم لا ، وشعرتُ بالغيرة تشتعل في داخلي

ومسعود يُغير مكانه ليجلس قربها في نفس المقعد . كدتُ أطلب منه أمام السائق أن يخرج أو يبقى في مقعده ، لكنني سرعان ما عرفتُ أنه لم يُغير مكانه ، وكل ما هناك أنه اقترب منها ليساعدها في تحريك رأس الطفل وربما فتح عينه حتى يتسنى رؤية البذرة بشكل أوضح.

****

في الخارج تبددت الغيرة عني في لمح البصر . قلتُ للطبيب الذي يبدو أنه لم يسمعني لأنه كان على مسافة مني أن مسعوداً كان على حق ، وانه ما أمرني أن أخرج ليستفرد بليلى بل لأرى حجم الكارثة التي بانت بوادرها على ظلال الركاب . لن أسأل أحداً منهم إن كان قد مر على الميدان في اليوميين الماضيين او لا كما كنتُ أفعل ، فمنظر ظلالهم تخبرني وتجيبني قبل أي سؤال . ولن اسألهم أكثر لأعرف مدى تفاعلهم مع الفكرة المقلوبة على جدار السرايا ، فظلالهم على الأرض تعكس مدى التفاعل.

كانت ظلالهم قد صارت ضدهم.

كانوا يقفون على أقدامهم ولم يلحق بهم الانقلاب بعد ، لكنه قلَّب ظلالهم ولابد انه في الطريق لهم . ولم يكونوا قليلين بل جل الركاب كانت ظلالهم مقلوبة ، حتى خشيتُ من فكرة الانقلاب أن تكون فكرة معدية ، وأن العدوى سوف تنتقل رويداً رويداً من مقعد إلى مقعد إلى أن تشمل كل الركاب ، وعندها لن ينجوا أحد منا ، وسوف ندخل إلى بيوتنا مقلوبي الظلال.

لكن فرضية العدوى سرعان ما نفيتها عن بالي حين شرعتُ أنظر إلى ظلي وأنا أحرك أطرافي لأتأكد إن كان قد طالهن شيء ، أو حتى وجود بوادر انقلاب قريب منهن . كان كل شيء فيَّ سليم ومعافى

ولا شيء يوحي برغبته في الانقلاب . حتى أصابع يديَّ الاثنين حين فردتهن بعيداً وصرتُ أحركهن ، كان ظلهن ينفرد على الأطراف ويتحرك بصورة طبيعية . أخذتُ نفساً طويلاً وزفرته وأنا اشعر أنني أتنفس الصعداء.

صحيح أنه باهت لكنه سليم من شعر رأسه وحتى أخمص قدميه ، وكنتُ اعرف لماذا ظلي دون كل ظلال العالمين باهتاً ، ولا حظ الطبيب ساعة اقترب مني شكله الباهت وأشار لي عليه وسألني عنه ، لكنني أجلتُ إطلاعه على الأمر . فضلتُ التريث حتى استشير مسعود في ذلك . حركتُ رأسي ويديَّ أمامه ، ورفعتُ قدميَّ الاثنين وأنزلتهما على الأرض واحدة بعد أخرى ، وركعتُ واستقمت ، وفعلتُ أكثر من ذلك وأنا أنظر وأتابع صورة ظلال أعضائي المتحركة في الأسفل ، في حين طفق الطبيب هو الآخر يجرب ويحرك أطرافه ويتابع حركتهم أسفل منه ، وتعانقنا عناقاً حاراً وباركنا لأنفسنا مباركة قوية وشعرنا بسعادة كبيرة ونحن نتعانق لأن ظلالنا لم يلحقها ضرراً . في حين كان الركاب يدخلون ويخرجون من وإلى المقهى ومن دورات المياه ومن مصلى صغير على جانب المحطة وظلالهم التي خلفهم والتي تحيط بهم مقلوبة.

كانوا يخرجون من المقهى وفي ايديهم القهوة ، حتى إذا ظهروا إلى الشمس ظهرت ظلالهم مقلوبة وتحمل القهوة مقلوبة ، وكانوا يختفون عنا إلى داخل دورات المياه وظلالهم تختفي إلى الداخل مقلوبة ، وكانوا يدخلون المصلى وظلالهم تدخل خلفهم على رؤوسها ، وكان منظراً غريباً جداً وحزيناً جداً ومتشائماً جداً . إذ ماذا لو مر كل الشعب بهذه المرحلة الأولية التي تسبق انقلاب الشعب ، وصاروا

يدخلون المقاهي والبيوت والجوامع والمدارس ودورات المياه على رؤوسهم.

حتى أولئك الذين كانوا يعطون ويُضيّفون بعضهم البعض على قهوة أو على بشكوط أو على كباية عصير كانت ظلالهم أسفل منهم تعطي بعضها العصير والسيجارة بشكل مقلوب . والشيء الذي ربما خفف من وطأت الصدمة وبثَ شيئاً من الدعابة بيننا هو ذلك الذي أشار عليه الطبيب ، ساعة ظهر ظله يقلب زجاجة ماء ويشربها من الأسفل.

لم ادخل المقهى ولا المصلى ولا أي شيء ، بل بقيتُ تحت أشعة الشمس أراقب كيف تتم المراحل الأولى من عملية انقلاب الشعب ، وخال لي ان كل مَن ينقلب ظله حتماً سوف ينقلب طوله ، والمسألة مسألة وقت . وكان ذلك جلياً ساعة بدى بعض الركاب لم يتم انقلاب ظلهم بشكل كامل ، ذلك أنهم لم يتفاعلوا بشكل كامل مع الميدان ، وقد يحتاجون إلى وقت اطول وتوعية أكثر حتى يعتمل الضد في ظلهم أولاً ثم يلحقون هم فيما بعد . لذلك المسألة مسألة وقت ، والعملية سوف تتفاوت من شخص لآخر ، وخيركم خيركم السابقون الذين يسابقون الوقت ويسبقونه ، حتى إذا وقفت الناس على رؤوسها وجدتهم قبل الناس دوي خبرة في المشي والجري على الرأس ، وعندها لا أحد سوف ينافسهم على المقدمة.

****

جلستُ على مقعد في الخارج تحت اشعة الشمس ، وأشرتُ للطبيب أن يدخل ويشرب ويصلي ويفعل ما يحلو له ، أما أنا ، دعني يا سيادة الطبيب وهذا المنظر الذي تصورته انقلاباً تحت المجهر ، أو انقلاباً

يعرضه شريط مرئي بشكل بطيء ، إلى أن لفتني واحد كان قادماً من خارج المحطة حين وقفتُ له من كرسيّ ومشيتُ نحوه . كان واضحاً لي انه ليس من ركاب الباص ، بل ليس عابر سبيل ، وأغلب الظن انه من سكان هذه المنطقة التي تقع فيها محطة المسافرين ، وظله مكتمل الانقلاب ، وهو بين كل خطوات يمشيها اراه يركع ويمسح بيديه الأرض كأنه يهيئها لشيء ما ثم يمشي ويتركها . كان سلوكه لافتاً مما دعاني أن أقف وأمشي نحوه دون أن أعرف لماذا ولا ماذا اريد منه . كنتُ تحت تأثير شبح الظلال المقلوبة ، حين شاهدته ينحني ويمسح بيديه الاثنين ويتسمر لثوان ينظر للمكان الذي مسحه وهيئه ثم يعود ويقف ويمشي عنه . شعرتُ بالشفقة عليه وربما هذا هو السبب الذي دفعني أن أذهب له دون تحضير مني ، فقط شعرتُ بحاجة هذا الشاب إلى المساعدة ولا أعرف أي نوع من المساعدة قد يحتاجها.

اعترضتُ طريقه قبل ان يلج المقهى . كان يود الدخول لكنني أشرتُ له وتقدمتُ ووقفتُ معه ، وسألته إن كان مسافراً أو مقيماً في هذه المنطقة ، فأجابني أنه مقيم . قال ذلك وهو معتد بإقامته حتى تصورته أنه لم يغادرها منذ زمن ، ولو كان هذا الاحتمال صحيحاً ، فهذا يعني أن انقلابه تم عن طريق شخص آخر كان قد نقل له الصورة المقلوبة بألوانها ، وليس بألوانها وحسب بل نقلها حتى بشحنتها العاطفية المقلوبة ، وإلا ما كانت لتبلغ منه هذا المبلغ.

كان وهو يقف معي ويحدثني ينحني مرة بعد مرة ويعيد تحسس الأرض ثم يقف ويواصل حديثه ، وفي مرات كان لا يقطع حديثه بل ينحني وهو يتكلم ويواصل كلامه حتى وهو يتحسس اسلفت المحطة ، وحين سألته عن هذه العادة التي تلازمه وعن عمرها عرفتُ أنها

ليست عادة بل هي تمرين ، وحين حاولتُ في أحد المرات ان أعيق أو أُءخر تمرينه لبضع ثوان مال عني قليلاً بشكل عفوي وواصل تمرينه ، وشعرتُ بأسف كبير عليه ، ورأى هو هذا الأسف على تعابير وجهي ، لكنه لم يهتم وأغلب الظن أنه تأسف عليَّ وعلى ظلي الذي لم ينقلب بعد ، إذ ساعة حاولت تأخيره تنحى قليلاً ودعاني أن أنحني وافعل مثله ، فسألته أكثر وعرفتُ منه أن ضد الخريطة على السرايا هو مَن قلَب ظله وطفق يُعده لانقلاب أشمل . أخبرني أنه باتت في داخله رغبة لأن يمشي على رأسه ، وأخبرته أن المشي على الرأس لا يجوز وغير لائق بشاب محترم ، فمال عني قليلاً ووقف على رأسه وخاطبني من الأسفل يسألني عن رأيي في منظره ، ثم خطى خطوتين ووقع على الأرض ، وعاد ووقف على قدميه قائلاً أنه منذ صباح اليوم تمكن من المشي خطوتين ، وغداً صباحاً أو اليوم المساء قد يتمكن من مضاعفة الخطوات ويجعلهن اربعة بدل خطوتين . قال ذلك وهو منتشياً بالتقدم الذي احرزه والذي سوف يحرزه.

تبادر لذهني والشاب يتركني ويدخل المقهى ، أن هذا الشاب سوف يكون من الأوائل ، وأنه لو تعطلت بنا الباص ليوم او يومين آخرين لرأيناه يأتي ويدخل المقهى بخطى معتدلة على يديه . والتفتُ لـ مسعود الذي كان يراقبنا من نافذة الباص ، ووضعتُ يدي على شكل بوق أمام فمي وناديتُ في البوق بأعلى صوتي ليسمعني مسعود قائلاً له : لا أحد يتصور حجم العقاب الذي قد ننناله من الله إذا حدث وانقلب الشعب على رأسه . لا أعرف يا مسعود ماذا سنقول لربنا يوم القيامة وكيف سنواجه التهمة ، وحتى لو سامحنا وغفر لنا الشعب المقلوب مَن يضمن أن أولاده وأحفاده سيغفرون وسيسامحون إذا

حدث وورثوا من أباءهم هذا ، ثم كيف سيكون موقفنا أمام الله الذي خلقهم في أي صورة ما شاء ركبهم.

****

في المحطة لم نطيل البقاء ، إذ سرعان ما نادى السائق علينا ، وطفق يزمر حتى التأم جميع الركاب في الداخل ، لكن الذي أخافني رغم علمي به مسبقاً هو شكل الأضلع التي تحمي صدر كل واحد منا . هذه الصورة ليست جديدة عليَّ ، بل كنتُ أعرفها ، حتى أنني وجدتُ يدي تتحسس صدري لوحدها فور نزولي من الباص ومشاهدة أول واحد يجر ظله المقلوب خلفه . كانت يدي التي سبقتني صعوداً ونزولاً مع أضلع الصدر تخشى مع الانقلاب أن تنقلب الأضلع وتنقلب معها أولويات ما في الصدر . لذلك ماانفكت تصعد مع واحدة بعد أخرى ، وتهبط مع واحدة بعد اخرى ، حين سحبتُ يدي وحشوتها في جيبي لأطمئنها أنني لن انقلب.

ساعة وقف الشاب أمامي مقلوباً على يديه ، جلستُ لأحدثه ويسمعني ، ووضعتُ يدي على ضلعه السفلي والذي كان قبل انقلابه هو العلوي ، وقلتُ له إن هذه الضلع التي كانت في أعلى الصدر سوف تهبط إلى أسفل إذا بقيت بهذا الشكل ، ووضعتُ يدي على ضلع صدره العلوية والتي كانت هي السفلية ، وقلتُ له إن هذه سوف تكون هي أعلى ضلع في الصدر ، وسوف يتبوأ قيمة السفلي أعلى مكان ، وقيمة العلوي أسفل مكان.

كانت يدي تصعد وتهبط مع اضلع صدره وأنا أشرح له خطورة ما هو مُقدم عليه ، ظناً مني انه غير مُدرك لما قد يحدث له ، لكنني فوجئت وهو يومي برأسه الذي يقف عليه انه على علم بكل شيء ،

بل انه دعاني لأن أجرب معه ، وأن لا أتخلف . في حين سألته أنا عن ماذا لو جُل الناس صاروا مثله على رؤوسهم في الشارع ، وأن هذا الشارع زُينت جنباته بما يروق ويتماشى مع ذوق هؤلاء المقلوبين ، فكيف سيكون شكل الشارع ؟! والحقيقة لم يتأخر في إجابته حين اوجزها بشكل قطعي في أن شكله حتماً مقلوباً ، ثم اقتربتُ منه أكثر وسألته عن كيف سيتفاهم مَن يمشي على رأسه في الشارع مع مَن يمشي على قدميه ؟! وهذه أيضاً لم يتأخر في الإجابة عليها ، حين قال إن الاثنين لن يتفاهما أبداً لأن الاثنين لن يلتقيا أصلاً ، وما يختاره هذا سوف ينبذه الثاني ، وما ينبذه الثاني سوف يختاره الأول ، وما هو غالي الثمن عند هذا سوف لن يدفع فيه الأول حتى ذرهماً واحداً ، والعكس صحيح ، وبالتالي سوف يعيش مَن يمشي على رأسه في وادٍ ، ومَن يمشي على قدميه في وادٍ آخر . ثم سألته ماذا لو جمعنا فريقي كرة قدم من الجانبين ، وارتدى فريق مَن يمشي على قدميه زياً وارتدوا مَن يمشون على رؤوسهم زياً آخر ، ودخلوا الملعب ، وأطلق الحكم صفارة البداية ، مَن تظن الفائز في هذه المباراة .؟! أجابني وللمرة الثالثة وبدون تأخير ان الفريقين سوف يهدفون الكرة في مرمى واحد ، وفي الشوط الثاني سوف يديرون وجههم إلى الناحية الثانية ويهدفون في المرمى الثاني.

تركتُ الفتى يمشي خطوتين حتى وقع لوحده على الأرض ، ثم انتظرته حتى وقف وسألته هذه المرة إن كان يعتقد أن مذاق السكر والملح سوف يتبادلان الأماكن ، وتغدوا شوالات الملح سكراً والسكر ملحاً عند المقلوبين ، أجابني قبل ان اكمل سؤالي بإشارة من رأسه تؤكد هذا الاحتمال ، مما قد يدعو المسؤولين إلى وضع خطط وبرامج

جديدة تستند إلى إحصائيات جديدة تكشف احتياجات السكان من الملح والسكر ، وكذلك لابد ان يكون أصحاب المقاهي والمطاعم على علم بهذا ، مما يتوجب عليهم تعديل ماكيناتهم بما ينسجم مع متطلبات الزبائن.

****

ما عدنا في حاجة للبقاء في الخارج ، فالمفاجأة التي قال عنها مسعود وقفنا عليها ، وعرفنا مَن من الركاب مر قبل يومين على الميدان ومَن منهم لم يمر ، وشعرنا أنا والطبيب أننا تشبعنا ونرغب في العودة إلى مقاعدنا في داخل الباص ، وقبل أن نصعد طلبتُ منه الانتظار قليلاً لأدخل وأجلب من المقهى على عجل بعض الأشياء التي قد نتناولها في الطريق ، وبعد خطوتين في داخل صالة المقهى وقفتُ مصدوماً في مكاني . كانت مُلصقة على الجدار خلف صاحب المقهى حين ناديت على الطبيب ليأتي ويراها بأم عينيه . كانت مثبتة خلف طاولة البيع ، وكان الموظف الذي يبيع للزبائن ويسلمهم سند استلام لحاجاتهم منهمك وغير معني بهذه التي خلفه ، حتى أنني حين سألته عنها أول مرة لم يسمعني في زحمة وضجة المشترين.

كنتُ أود أن أعرف منذ متى هذه الخريطة في المقهى ، وكيف وصلتْ له ، والحقيقة كنتُ مصراً على معرفة كل شيء عنها ، ولا أعرف لما هذا الإصرار ، لكنني بررته فيما بعد بأن فكرتي أنا ومسعود ربما يكون قد تم تعميمها ، وما عادت حكراً على الميدان في طرابلس ، وأن جميع المقاهي والمحطات الواقعة على جانبي الطريق هي أيضاً مزينة بالخريطة المقلوبة ، وأن تلك الفكرة التي فكرنا فيها بعمق يوماً على أطراف القرية ، ما عادت فكرتنا ، وربما حتى ما

عادت فكرة مجردة كما تأملناها ، بل باتت قدراً واقعاً على الأرض.

عاودتُ سألته ، وحين لم يرد عليَّ ، كنتُ مضطراً لحركته بيدي لينتبه ويسمعني ، فرفع رأسه ، وجاوبني أن هذه الخريطة وصلته قبل يومين ، حين جاءت سيارة محملة بالخرائط وطفقت توزعها على المحلات والمقاهي ، وأضاف أن الشخص الي سلمهم الخريطة وقف واشرف بنفسه على تعليقها بعد أن حدد لها المكان المناسب ، وأضاف ايضاً وهو يشير بيده أن الرجل وقف هناك وهناك ليتأكد أن الخريطة واضحة لكل مَن يدخل المقهى ، وأن كل شيء سوف يكون مقلوباً بشكل واضح للكل الزبائن . فتراجعتُ وهو ما زال يشير إلى أبعد زاوية في المقهى لأرى الوضوح الذي اشار له ، وبالفعل كان كل شيء مقلوباً بما في ذلك أسماء الجبال والوديان والقرى والمدن ناهيك عن ألاسم الرسمي للخريطة والذي كُتب بالخط العريض على رأسه.

وقف الطبيب إلى جانبي ليرى ويسمع ما يقوله صاحب المقهى عن سيارة الخرائط . كان حجم الخريطة يرجع أو يتناسب مع مساحة المكان ، وفي حالة طلب صاحب المحل حجم أكبر للخريطة من مساحة محله بحجة أنه قد يقوم بتوسيعه لاحقاً ، سوف يستلم خريطتين ، واحدة لما قبل التوسيع والثانية لما بعده . قال إن السيارة قامت بجولة في المنطقة ، ووزعت على كل المرافق العامة فيها خريطة وخريطتين ثم جاءت ووقفت هناك ، أشار بيده على بُعد أمتار من باب المقهى ، وأضاف أن شخصاً غليظاً نزل منها يغمر بين ذراعيه حزمة من الخرائط جال بها على كل الأبواب في المحطة.

تقدم الطبيب من بين الزبائن إلى خلف الطاولة ووقف ومسح

الخريطة المقلوبة بنظرة شاملة من حدها الشرقي إلى الغربي ، ثم امتدت يده تتحسس الأسماء المقلوبة . لم أكلمه ولم ألفت انتباهه عما يفعل حين خال لي أنه حزين ، خاصة ساعة وصلت يده لمدينته في الجنوب الواقع في اعلى الخريطة . كان انقلابها في المقهى يشعر الناظر أنها قريبة منه ، وأنها خرجت من الرسميات وباتت أكثر شعبية ، وأنه بوسع أي واحد ان يقترب منها ويسأل.

كانت مدن مثل طرابلس وبنغازي ومصراته والزاوية وسبها أكثر المدن وضوحاً في انقلابها ، ذلك أن اسماءهن ظهر أكبر وأكثر وضوحاً من غيره ، في حين ظهرت المدن الصغيرة أقل وضوح ، والقرى الصغيرة قد يحتاج الناظر للاقتراب أكثر لتظهر له حروف ونقاط الاسم مقلوبة ، والجبال والوديان هي الأخرى تتفاوت حسب حجمها على الطبيعة ، فجبل مثل جبل الهاروج الذي يتوسط الخريطة لا داعي للاقتراب منه أو للتركيز فـ»الهاروج» يظهر على رأسه ويمكن تبينه من ابعد طاولة في المقهى.

سرح الطبيب في التضاريس المقلوبة ، وما كان ليخرج لو لم أخذه من ذراعه لينتبه ويسمع نداء السائق وتزميره العالي.

****

خال لي والطبيب يقترب بوجهه من الخريطة أن السماء لا يمكن أن ترسل اقداراً مقلوبة على الأرض ، ولكن الطريق الطويلة التي تسلكها الأقدار بين السماء والأرض تكون دائماً محفوفة بالمخاطر ، وأن الله ما جعل النجوم رجوماً للشياطين إلا ليوءمن هذه الطريق لأقداره ، ومع ذلك تظل الشياطين موجودة وتُشكل خطراً على الطريق والأقدار التي تهبط منها تباعاً ، وتظل احتمالية أن يعترض شيطان

قدراً من الأقدار في منتصف الطريق ، ويقلبه ليصل إلى الأرض مقلوباً على رأسه هو احتمال وارد.

قلتُ في نفسي والطبيب يضع على عينيه نظاراته الطبية ويُقربها اكثر من الخريطة ، ماذا لو أن الشيطان الذي اعترض خريطتنا كانت قد أصابته نجمة وأردته قتيلاً ولم يطال خريطتنا ، أو ماذا لو حاول معها ولم يستطع قلّبها على رأسها فتركها وهرب خشية أن ترجمه نجمه ، أو ماذا لو افلتت الخريطة منه ولم يلحق بها ووصلتنا سليمة ومعافاة من أي سوء . عندها لكانت هذه الخريطة الآن خلف صاحب المقهى تأخذ وضعها الطبيعي الذي أرسلت به من السماء.

نظرتُ لها من وراء الطاولة ، وتصورتُ حتى المكان الذي قبض منه الشيطان ليديرها على رأسها قبل أن تصل الأرض وتغدوا قدراً مقلوباً على رأسه . ثبتُ نظري على زاويتها التي ربما يكون الشيطان قد قبض عليها منها وأدارها 180 درجة . خالت لي اثار أصابعه ما زالت عالقة على حاشيتها . لم ارى شيئاً ، ولا يمكنني رؤية أثار اصابعه لكنني تخيلته وأشرتُ للطبيب على ذلك ، فهو قد يكون بمقدوره رؤية اشياء كهذه ، ولم يجبني بشيء سوى أن يده امتدت لحقيبته التي لا تفارقه وسحبت منها عدسة سميكة خاصة بالأطباء . كانت اشبه بعدسة الساعاتي ، وحتى طريقة تثبيتها على العين كانت تماماً كما يفعل الساعاتي ، حين طفق ينظر من خلالها إلى زوايا وحواشي الخريطة حيثُ من غير المستبعد أن تكون أصابع الشيطان التي قلّبتها قد مسكتها من الزاوية ولفتها بقوة شيطان على رأسها.

كان صاحب المقهى منهمكاً في قطع الإيصالات للزبائن واستلام النقود منهم ، في حين كانوا هُم يأخذون منه الإيصال ويذهبون

لاستلام طلباتهم من طاولة أخرى ، ساعة تركتُ الطبيب وذهبتُ أنا أيضاً لاستلام طلباتي مع الزبائن . تركته مُثبت عدسته السميكة على عينه اليمنى ويُغمض اليُسرى ويمسح بنظره من وراء العدسة حواشي الخريطة ، لعله يعثر على اثر لأصابع الشيطان ، وحين عدتُ له ووجدته لم يجد أي أثر لأصبع شيطاني على الخريطة . قلتُ له ربما عدستك غير مُجهزة لاكتشاف بصماتهم ، وهُم أيضاً ليسوا من الغباء ليتركوا ما قد يشيئ بهم وبأفعالهم ، فالشياطين حذرة أكثر من الإنسان بألف مرة ، بل هي قادرة على تمويه وتضليل ملاين البشر في لحظة واحدة ، لذلك وحتى لا نضيّع وقتاً يا سيادة الطبيب أترك عنك وتعال واختر بنفسك ما تود اختياره من عصير وأطعمة أخرى قبل أن تتركنا الباص وتمشي عنا . ولم يهتم ، ولم يكلف نفسه سوى إشارة لأن أجلب له أي شيء ، وعاد ودخل وسط الخريطة بعدسته ، وذهبتُ عنه وأخذتُ أشياء مشكلة حسبتُ فيها حساب مسعود وليلى وطفلها ، وكذلك لم انسى الشاب غيث ووالده.

****

كان غيث يجلس قريباً مني قبل أن انتقل وأغير مكاني وحتى بعد أن عيّرتُ مكاني ، إذ هو في منتصف المسافة بين مكاني الأول ومكاني الأخير ، والتواصل الذي حدث بيننا سواء كان معه أو مع والده ، حتى وإن كان قصيراً لكنه كان قوياً وكافياً ليصنع صداقة دائمة . في المحطة لم يطيل البقاء غيث بل نزل من الباص وسرعان ما شاهدته يعود ويصعد مع والده . رغم مرورهما على الميدان إلا أنهما كانا مستويا الظل . حين مرا من جانبي عائدين إلى الباص مرا بظلين مستقمين غاية في الإستقامة . كدتُ أهرع لهما وأصافحهما

مهنئاً لهم على هذا الثبات ، لكنني أجلتُ ذلك إلى ان أعود وأقدم لهم سلة فواكه صغيرة اشتريتها فيما بعد خصيصاً لهما.

اشرتُ للطبيب عليهما وهما يمران قريباً منا ، وقلتُ له أن مثل هؤلاء قليلون ولو كانوا كُثر لما صار القدر قدراً محتوماً على الأرض . قلتُ ذلك وأنا أتحسر على أكثر الركاب الذي كانوا يتمشون قريباً منا وهم مقلوبي الظلال.

قبل ذلك ، وقبل أن ننزل من الباص ، أي ساعة دار حديث بيننا ولمحتُ مسعوداً يركز بصره على غيث ، وصلتني منه صورة تعتقد أن مَن مثل غيث ، يوم يكتمل الشكل المقلوب في الشارع ، ويغدوا الشارع من أوله إلى أخره على رأسه ، سوف يبلغ الحنق فيه درجة تفعل العجب العجاب والتي قد لا يصدقها حتى مَن يراها بعييه ، لذلك كان هذا الفتى الذي بالكاد تعدى العاشرة لافتاً لي منذ أول حديث معه ومع والده ، وزاد أكثر ساعة فات صاعداً الباص بظل مستقيم يمشي على قدميه رغم مروره على الميدان وبقائه فيه أكثر من ساعة.

لم يحضر غيث ووالده الاحتفال في الميدان ، ولكن أغلب الظن أنهما أجلا المرور حتى انقضائه واختفاء مظاهره . دخلا الميدان من جهة شارع الشط القادم من ميدان الغزالة ، وظهرت عليهما الخريطة مقلوبة من طرف الميدان البعيد ، ووقف الأب هناك من تلك المسافة يدقق فيما يرى . لم يفاجأ ، إذ كان من النباهة التي تمكنه رصد خفايا قد لا يراها غيره أو قد يستهين بها غيره . وضع يده أمام وجهه ليحجب بها شمس المساء ووقف ينظر للخريطة ، في حين تقدم غيث خطوات ثم وقف ورفع هو الآخر يده ليحجب بها الشمس وينظر مع والده ، وبعد أقل من دقيقتين تقدم الأب وتبعه ولده بخطوات هادئة

ويد كل واحد تُبعد اشعة الشمس عن عينيه . كانت بقايا الاحتفال ما زال منها على الأرض ، وبقايا الأناشيد ما زال منها في الأجواء ، وبقايا الحرس وعناصر الأمن ما زال منهم في الميدان يرصدون ردود أفعال الناس ، ويرصدون ايضاً مدى قابليتهم للانقلاب والمشي على الرأس ، في حين كان غيث ووالده يتقدمان نحو الخريطة ويد كل واحد تُبعد اشعة الشمس عن عينيه ، حتى إذا دخلا حيز ظل السرايا وتوارت الشمس خلف السرايا الحمراء ، أنزل كل واحد يده دون أن يتوقفا عن التقدم بنفس الخطى ، وعلى مسافة ليست بعيدة من الخريطة اعترضهم الحرس.

كان الناس يلقون نظرة وهم يمشون لكن والد غيث أراد أن ينظر ملياً ، فما يود رؤيته ليست الخريطة ، بل انقلاب الخريطة . بقيَّ هناك حتى آذان المغرب ، حين تركا الميدان إلى جامع السنوسية الواقع على مسافة اقل من مئتي متر في شارع المختار ، وهناك أعاد والده صلاة الغرب مرة أخرى بعد أن صلاها خلف الإمام ظناً منه أنها قد لا تكون مقبولة ، حين تاه قلبه عنها فيما قد يفعله ضد الخريطة . وفي الخارج لم يدر حديث طويل بين الأب وولده غيث ، بل ظل أكثر الوقت ساهماً ، إلى أن تناولا عشائهما وفي غرفة الفندق أخذ الوالد قلم وورقة ورسم لولده باب بيتهم وأمامه طابور طويل من أيام مقلوبة على رأسها ، وخلف ظهر البيت طابور أخر طويل ومقلوب على رأسه ، ثم طفق يُفسر له الصورة ، حين عرّف له المستقبل بطابور طويل يبدأ من عند باب البيت ، والماضي هو طابور آخر ملقى خلف ظهر البيت ، لكن الفرق بين مستقبلك يا بني ومستقبل فتى آخر في مقتبل العمر مثلك ويسكن بلاد أخرى ، هو أن

طابوره الذي يبدأ من عند باب بيتهم يتكون من أيام تقف على قدميها ، وطابورك انت الذي يبدأ من عند باب بيتكم يتكون من ايام مقلوبة على رأسها ، وماضيك لن يكون سوى طابور آخر من أيام مقلوبة وملقاة خلف ظهر بيتكم.

****

في مقهى المحطة عدتُ ووقفتُ عند الطاولة بعد أن اشتريتُ كل ما يلزمني للطريق . كان الطبيب ما زال يُثبت العدسة السميكة على عينه اليمنى ويُغمض اليسرى ، لكنه هذه المرة كان قد ترك حواشي الخريطة ودخل إلى الداخل . وجدته يقترب من طرابلس إلى الحد الذي يلامس بعدسته سطح طرابلس . قلتُ في نفسي لابد انه وجد شيئاً مهماً جداً في شوارعها ، وربما حتى يكون شيئاً غير مقلوب . شدني المشهد وفكرتُ أن أدخل معه خلف الطاولة وأشاهد ذلك الذي لم ينقلب ، لكن المكان كان ضيقاً جداً ولا يسع لأكثر من واحد ، فظهر صاحب المقهى الذي يقطع الإيصلات كان يلامس في مرات كثيرة ظهر الطبيب ، وكان ذلك مزعجاً له حتى أنه طلب من الطبيب لو يخرج ويتركه يعمل بحرية ، في حين طلب منه الطبيب أن يتحمله ويسمح له بالبقاء قليلاً.

لم يحد عن طرابلس ، بل ظل يقترب منها حيناً ثم يتراجع براسه قليلاً . لم اعرف ما يرى لكن رغبة قوية وُلدت في داخلي في تلك اللحظة تطالبني ان أنظر من خلال عدسته إلى طرابلس الواقعة أسفل الخريطة المقلوبة . طلبتُ منه ذلك ، وانتظرته بعض الوقت حتى يرد عليَّ وكان هذا التأخير منه قد زاد من رغبتي في مشاهدة ما كان يشاهده ، وحين تراجع عن مكانه وخلع عدسته ليُثبتها على عيني

كان صاحب المقهى قد زحف بكرسيه للخلف ظناً منه أن الطبيب قد غادر ، لكنه سرعان ما تبين أنني سوف أحل محله لأقل من دقيقة . ترجيّته والعدسة على عيني اليمنى وساعدني الطبيب في إقناع صاحب المقهى بأنني صاحب فكرة الخريطة ، ومُطالب أن ألقي عليها نظرة سريعة بعد نشرها في مقاهي الطريق العام ، وأنني سوف ارفع تقريراً عما شاهدته في المقهى وفي الخريطة . كان الطبيب يتكلم بتلقائية إلى الحد الذي كدتُ أصدقه وأحسب نفسي مكلف بما قال ، وحين تقدمتُ خلف ظهر صاحب المقهى واقتربتُ من الخريطة قال لي الطبيب أن أنظر إلى مستشفيات طرابلس . نسيتُ قبلها أن أول ما يهم الأطباء في أي بلاد هو حال المستشفيات فيها ، وبالفعل تركتُ العمارات والناس والجوامع والحدائق وكل شيء فيها لأطالع كما طلب مني حال المستشفيات ، وحتى لا أضيّع وقتاً أشار عليَّ أن أدخل مباشرة على غرفة العمليات المقلوبة بأسرتها وأجهزتها والممرضات وصولاً إلى الجراح الذي يُجري عملية على مريض . كان يقف على رأسه وفي يديه أدوات القص والجراحة ، وكانت الممرضات يتحركن بحرفية عالية على رؤوسهن ، وكان جهاز القلب يدق مقلوباً على رأسه ، وكان كيس البول الموصول بمجرى إحليل المريض يتأرجح في الأعلى.

خرجتُ من غرفة العمليات ، وأخذتُ جولة سريعة في أرجاء المستوصف ، حين بدى لي أثر الانقلاب أقل على عاملات ينظفن البلاط ، وعلى عمال آخرين يدفعون عربة محملة بوجبة غداء للمرضى ، وعلى مرضى يتمددون على أسرتهم ويضعون أقدامهم على الوسادة ورؤوسهم في الطرف الثاني من السرير ، ونزلتُ عبر

سُلم مكتظ بزوار مصحوبين بأطفالهم ومحملين بحاجات مرضاهم ، وكلهم كانوا يقفون ويمشون على رؤوسم ، والعاملة التي كانت تطلى وتنظف البلاط كان رأسها يقف في رغوة الصابون ، وفي الخارج ، حيثُ حديقة المستشفى وسيارات الإسعاف والخفير جميعهم ودون استثناء وقفوا في الخارج يقومون بعملهم على أكمل وجه ، وما أقل أولئك الذين كانوا يدخلون المستشفى ويخرجون مشياً على أقدامهم ، وكان بعضهم حين يصل الباب ويرغب في الاستفسار من الخفير يضطر للجلوس والاقتراب منه حتى يسمعه جيداً ، ثم يعاود وينهض ويواصل سيره ، وكان بعضهم يهز رأسه متأسفاً على الحالة التي وصلوا لها.

****

ما كانت المستشفيات تعنيني كثيراً لكنني مجاملة له وقفتُ عندها . ذهبتُ لها اولاً بناء على طلبه ، وكنتُ أعرف أنه طبيب وما يهمه هو حال المستشفيات والمرضى فيها ، لكنه لا يعرف أن أي مكان هو كأي جسد يكفي ان تأخذ منه قطرة دم بشكل عشوائي وتضعها تحت المجهر لتعرف منها حالة الجسد بالكامل . كان الطبيب يتصور أن جسد البني آدم وحده مَن تنطبق عليه هذه القاعدة . ووحده مَن جزء يسير منه يُعرِفك على بقية الجسد ، لذلك وتماشياً مع معرفته مشيتُ لأنظر لأحوال المستشفى . ما كان هناك متسع من الوقت لأشرح له أنه لا فرق بين مستشفى وموقف سيارات وجامع وملعب لكرة القدم ، كل هذه الأشياء بعضها من بعض لتشكل جسداً واحداً ، وإذا ما رأيت ملعباً مهملاً فأعلم ان غرفة العمليات في المستشفى هي الأخرى مهملة . لكنني لم اقل له شيئاً من هذا وكل ما فعلته انني بعد ان أنهيتُ

جولتي في المستوصف ، أخذتُ جولة في المدينة ، ثم اخذتُ عينات عشوائية من مجموعة مدن.

كانت العدسة قوية وفاحصة لا لتكشف مشهد عمارة مقلوبة على رأسها ، بل بمقدورها كشف ورؤية حتى حذاء مقلوب على ظهره عند باب مسجد . كان كل ما يتعلق بالإنسان مقلوب على رأسه في حين ظل كل ما يتعلق بالحيوان والطير والحشرات والزواحف على ما هو عليه . لم تنقلب هذه الكائنات رغم وجودها على الخريطة . مشيتُ في أكثر من مكان ، وأخذتُ أكثر من عينة ، واختبرتُ أكثر من حيوان ، لكنني لم اعثر على بقرة أو جمل أو طير أو أفعى مقلوبة على ظهرها . كل الكائنات الحية عداء الإنسان . جميعها بقيَّ يمارس حياته العادية التي خلقه الله لها ، في حين انقلب الإنسان على رأسه من بين هذه الحيوانات والحشرات التي ظلت تنظر له باستغراب ، وتتعجب كيف للإنسان القدرة على الوقوف والمشي بهذا الشكل ، وكانت بعض الحشرات تحاول أن تقف وتمشي مثله لكنها تعجز وتقول في نفسها ربما له قدرات لا تتوفر عند غيره من الكائنات . والحقيقة أن ظاهرة عجزها غريبة وعجيبة وحتى جديرة بالفحص والمعاينة لكن الوقت لا يسمح ، والعدسة أيضاً ليس بمقدورها الولوج لترى مُخ الحيوان والحشرة وبقية الكائنات الحية . كان فقط بمقدور العدسة رصد الإنسان ، والتقاط صوراً حية له وهو يقف على رأسه.

حاولتُ وأنا أُميّل العدسة يميناً وشمالاً لألج بها رأس بقرة أو دماغ خروف ، وأرى شكل المنظومة التي تضبط سلوكه ولم تدفعه للوقوف مقلوباً كما جاره الإنسان لكنني لم استطع رؤية شيء . كنتُ على يقين لو انقلب دماغها لانقلبت الناقة على ذروتها ولمشت النملة

على ظهرها والديك على منقاره . وخال لي أن مَن قلَبَ الخريطة لم يقلَبَ سوى الخريطة التي استلمها منا في الميدان ، والتي لم نرسمها أنا ومسعود إلا لنخاطب بها المواطن الإنسان وليس الديك والبقرة والنملة ، ولو وضعنا خطوطاً أخرى على الخريطة تشمل الحيوانات والطيور والحشرات ، لما نجت الحيوانات والطيور والحشرات . قلتُ في نفسي وأنا أصل لهذه النتيجة وأنسحب من وراء ظهر صاحب المقهى ، ما أكبر حظك ايها الجمل والديك والكبش والخنفوسة يوم استبعدناكم من حسابنا ، ولم نضمكم إلى المواطن الإنسان . كان جل اهتمامنا منصباً عليه ، ظناً منا أنه إذا كُرم هذا المخلوق فسوف يلحق التكريم كل مَن يسكن الخريطة ، وإذا بالنتيجة تنقلب على رأسه ، ويصاب حيوانه بالفزع من سيده الذي صار يأتيه كل صباح ويدخل الزريبة ماشياً على رأسه.

****

ما أضافت لي عدسة الطبيب هو أنني شاهدتُ صورة بيتنا يوم كل شيء بلغ مداه ، وبلغ ضد الخريطة ذروته ولم تعد إلا القلة القلية تقف على قدميها . ثبتتُ العدسة على المكان ، وأخذتُ جولة سريعة قبل أن اقف على شارعنا . لم يأخذ الزمن الذي توقعته لكي يصل كل شيء أقصاه . في نهاية الثمانينيات لم يبقى إلا القليل ، وحتى هذا القليل لا أحد يعلم إن كان سوف يصمد زمناً أطول أم انه سيقبل بالأمر الواقع وينقلب على رأسه . دخلتُ قريتي من مدخلها الذي ما زال كما هو يأتيها من جهة الشرق ثم ينعطف شمالاً ويمضي الطريق حتى نهايتها ، بعد أن يكون قد فجها إلى نصفين . كان الجميع يقف على رؤوسه . قلما تجد مَن يقف على قدميه . عشرة سنوات أو كثر قليلاً كانت كافية

لهم . كنتُ أعتقد سيستغرق زمناً أطول ، حتى هؤلاء الذين انقلب ظلهم بيننا في المحطة كان مسعود يتصور مسافة طويلة بين انقلاب الظل وانقلاب الجسد ، لكن ما كشفته العدسة ربما يخالف توقعات مسعود ، أو ربما الزمن الذي يحتاجه ضد كل خريطة فينا يتفاوت من واحد إلى آخر ، وعلى أية حال في نهاية الثمانينيات كانت كل أو جل البلاد قد شملها العمل ، وصار العالم الخارجي يُكيف وضعه وأدواته وطائراته وخطوط اتصالاته وأشياء اخرى للتعامل مع هذا البلد بطريقة مقلوبة.

أوقفتُ العدسة في أول شارعنا . كان بيتنا الذي يقع في اول الشارع من جهة اليمين قد ظهر يقع في آخره من جهة اليسار ، وكنت حين اقف في منتصف الشارع تظهر مئذنة الجامع طويلة ، وبعد هذه السنوات حجبتها عن الشارع عماراتين مقلوبتين على رأسيهما ، وكانت المدرسة التي تجمع كل أطفال القرية ، وتقع في الشارع الخلفي ، ويفتح بابها على الشارع الرئيسي أغلقت بابها الرئيسي وسدته بجدار اسمنتي وفتحت باباً آخر صغيراً لتلاميذها يطل على زقاق جانبي ، والمستوصف الذي يحد المدرسة من الغرب قُسم إلى نصفين ، نصف بقيَّ لأهل القرية ، والنصف الثاني صار ورشة حدادة ، وخزان المياه العالي الذي يغذي القرية ظهر كما لو أنه مقلوب على سقفه ولم يستعمل منذ انقلابه ، وكل ذلك لم يستوقفني كثيراً ولم تستهويني مشاهدته حين عدتُ على وجه السرعة إلى شارعنا لأرى بعض من احتفال بيت الجيران . بدى واضحاً أنه عرس حين ظهرت الخيمة أمام باب البيت مزدانة بالإضاءة وأشرطة الزينة.

أخذني مشهد العرس وكاد سائق الباص يتركني في المقهى ويمشي

عني . لم أسمع نداءاته وتزميره لو لم يأتي الطبيب يركض ويحثني على ترك كل شيء والسرعة إلى الباص . تركتُ العرس بعد ان شاهدتُ جزء يسير منه . كان مشهد خيمة النساء والنساء المبتهجات على رؤوسهن في وسطها مشهداً مثيراً ولا حتى في الأفلام ، كن يدخلن الخيمة وسرعان ما يخلعن أرديتهن وجلابيبهن الخارجية ويبقين بفساتين شفافة لا يشدها سوى سير رفيع جداً ، وكانت كل واحدة يأتي الدور عليها تقف من مكانها وترقص على رأسها تحت وقع الموسيقى ، في حين تواصل بقية النساء المتجمهرات حولها يصفقن ويزغردن على رؤوسهن . وما كنتُ لأترك العرس لو لم يصلني الطبيب ويجذبني بقوة ويحذرني أن السائق لن ينتظر اكثر ، وأخبرته أن ينتظرني قليلاً ، وكنتُ مستعداً لأقول لهم أن يذهبوا ويتركوني لكن الطبيب أخذ عدسته .

ظهر أمامي شريط العرس كأنه منفس مما أنا فيه من ضيق ، وشعرتُ بروح مستهترة تطالبني بالاستهتار من كل شيء وما عاد شيء يستحق الجدية ، حين ذاعبت صور تلك النساء الراقصات روحي من الداخل . حاولت أن آخذ منه العدسة وأعود وأتركهم يذهبون لكن الطبيب رفض ، وحاولت أن أنظر بدون عدسة لكن ذلك غير ممكن ، ولو ترك لي عدسته لما خرجتُ من المقهى قبل حلول الليل . كانت عدسة فريدة من نوعها وموصولة بسماعة عبر سلك معدني ، حين أرهفتُ سمعي من خلالها لموسيقى وأغاني العرس ، واقتربتُ اكثر من باب الخيمة ومن هذا الحماس الذي يأخذ النساء على رؤوسهن ويكاد يُخرجهن من طوعهن ، ولم أفاجأ ساعة وجدتُ الأغاني ليست أغاني بل أناشيد ثورية حماسية.

****

كان لوالد الشاب غيث عين لا تقل قدرة على الغوص وسبر أغوار الغيب عن قدرة عدسة الطبيب . ركبتُ الباص واعطيته الأشياء التي اشتريتها خصيصاً لهما ، وما كان ليقبلها لولا أن اشترط عليَّ أن أشاركهم . كان حينها سائق الباص قد فات واستوى بسيارته على الطريق ، وكان كل الركاب قد أخذوا مقاعدهم وساد صمت في الداخل ، ولا شيء سوى خشخشات بعض الأكياس التي جلبوها من المقهى أو أصوات أفوام تكرش وتأكل . كنتُ أرغب في العودة لمكاني حيثُ مسعود وليلى والطبيب والطفل الذي أظنه على وشك النهوض من بينهم ، وكنتُ أتمنى لو أحضر هذه الدقائق الأخيرة قبل نهوضه ، لكن والد غيث شدني من ذراعي فجلستُ معه . والحقيقة ما كنتُ كارهاً الجلوس معه ، فصورة تلك الأيام المقلوبة التي رسمها لولده غيث مازالت عالقة في ذهني ، لكنني كنتُ أفضل لو حضرت على الأقل آخر دقيقة تمت فيها معالجة البذرة المقلوبة في رأسه الصغير ، وعلى أية حال بقيتُ مع غيث ووالده ، وتركتُ امر الطفل.

سألته عن الصباح المقلوب وعن الظهيرة المقلوبة على رأسها ، فابتسم في وجهي ، ثم عن آخر الليل وفي الظلام الذي لا يُرى منه شيئاً وكيف نراه مقلوباً ، وعن الصورة التي يعيشها الواحد بكل حواسه ساعة يفتح باب بيتهم ويخرج فيجد أمامه الصباح مقلوباً على رأسه ، ويعود إلى الداخل على أمل أن يعتدل بعد ساعة ولن يعتدل حين يفاجأ ويُصدم ويكتشف أن ضده ليس باقياً طول الصباح والمساء وطول الليل وحسب ، بل طول العمر الذي يبدأ طابوره طويلاً في ايام تصطف وراء بعضها مقلوبة على رأسها وعلى مد البصر من

عند باب البيت ، ولا سبيل لصاحب هذه الأيام سوى ترك نفسه تنقلب مع الأيام حتى يتمكن من العيش في داخل هذا النوع من العمر.

كان المكان الذي يتموضع فيه والد غيث وينظر من خلاله إلى مُقبل الأيام مختلفاً تماماً عن مكان مسعود وعن مكان عدسة الطبيب ، فواالد غيث لا يرصد انقلاب الأشياء بل يرصد انقلاب الايام ، وبالتالي هو يستخدم أدوات مختلفة في استنطاق غيب يصطف الضد فيه أمام باب البيت إلى مسافات بعيدة.

لم يخفي الرجل فجيعته من مشهد الخريطة على جدار السرايا ، ولم يخفي شعوره بالخوف من مكر الضد الذي فعل ذلك ، ولم يُخفي حزنه وإشفاقه على بساطة تفكير مَن يسكنون الخريطة والذين ليس بوسعهم سوى العيش مقلوبين ، لأن رد الواقع محال ، والوقوف في وجه الواقع يعني الوقوف والمشي بشكل عكسي في وجه الشارع ، وهذا قد يُعرقل حركة المارة والسيارات ويعرض صاحبه للمخالفة ، لذلك أقرب الاحتمالات وأسهلها أن ينقلب الواحد على رأسه قبيل فتح باب بيته بلحظات ثم يخرج للشارع منساباً مع المقلوبين.

****

الشيء الذي لفت انتباهي وحتى أزعجني بعض الشيء وأنا جالس مع والد غيث ، هو نظرات الاثنين التي يوجهونها إلى ليلى الجالسة أمامهم في منتصف الحافلة . ليس من حقي أن اغار أو أمنعهم عنها ، ولا حتى من حقي منع طفلها الذي استأنس غيثاً وصار يلاعبه . منذ أن كنتُ اجلس في مؤخرة الباص رأيتُ الطفل يأتي غيثاً ويجلس معه ، لكن علاقة الطفل زادت ، ونظراتهما لها تشي بشعور ربما لا يختلف عن شعوري حيالها . قلتُ في نفسي لا يمكن أن تكون ليلى

للجميع ، وما نظراتها للخلف نحونا إلا لمراقبة طفلها الذي لا يمل اللعب والتنقل بين الركاب . كانت جميلة ولافتة للكل والكل يلاطف طفلها.

شعرتُ برغبتي في العودة لكرسيَّ ، وحين طالبني والد غيث أن أبقى أكثر بينهما اعتذرتْ وشكرته ، وسمعتني هي حين لمحتها ترمقني وطفلها في يدي . ابتسمتُ في وجهها وأنا أنهض من مقعدي قرب غيث ، وبادلتني ابتسامة بشكل مباشر لأول مرة ، وشعرتُ من ابتسامتها أنني ملكتُ العالم بين يدي ، ونهض والد غيث وبارك لي فوزي العظيم . لم اسأله عن أي فوز يتحدث لكنني ظننته يُبارك لي فوزي بليلى . كان والد غيث مختلفاً عن كل الناس الذين عرفتهم في السابق . كانت له نظرة دقيقة وعميقة لسبر الأشياء والناس ، وما بارك لي وأنا اقف من عنده بفوز أجهله وقتها إلا لأنه تأكد من الفوز ، وقلتُ في نفسي أياً يكن هذا الفوز فهو فوز يستحق المباركة ، وأدرتُ لفتة لولده غيث الذي كان يجلس عن يميني وجدته باشر الوجه كأنه يشاطر والده.

وبعد أن هممتُ بالمشي من عندهما وقفتُ في مكاني للحظات وسألته عن أي فوز يتحدث فابتسم في وجهي وأخبرني عنها . جذبني له وأسر في اذني ما لم أعلمه . كان يحدثني عنها بإيجاز وبسرعة وكنت أسمعه وأنظر لها ، وكان يحدثني عنها وكانت صورتها تكبر وتملأ الباص ، وحين انتهى من حديثه عنها ، قال لي إن كنتُ أرغب في المزيد عنها فما عليَّ إلا الجلوس وسوف يحكي لي عنها حتى آخر محطة . كان يعرفها منذ نعومة أظافره ، وولده غيث هو الآخر عرفها منذ نعومة أظافره يوم كان يسافر مع والده ، وقلتُ له أنا

أيضاً أعرفها منذ نعومة أظافري . كذبتُ عليه حين شعرتُ برغبة في المزايدة عليه بمعرفة ليلى ، وعاودتُ وجلستُ لدقيقة أخرى بينهما لأخبرهم أنني أعرفها ، وإن فوزي بها ليس اليوم بل منذ نعومة أظافري ، وشعرتُ بكذبي هذا يخال لي كأنه حقيقة ، حين صار غيث ووالده ينعمان لي ويوميان برأسيهما لي مما يشير إلى أني ربما أكون أعرفها دون أن أدري.

ومما زاد من تأكيدي على علاقتي المتينة والعميقة بليلى ، هي تلك الإشارة التي أطلقها لي مسعود ، ليقول لي منها أن ليلى تحبني أكثر من أي راكب في الباص . قلتُ في نفسي ربما يكون الخط الذي يربطني بـ مسعود هو خط مزدوج الوظيفة ، وإلا ما كان مسعود يعلم أنني أفكر بها وأتحدث لـ غيث ووالده عنها ، وكانت إشارة مسعود جعلتني أكثر ثقة فيما اقول ، حتى أنني ما عدتُ أزن كلماتي بل اقذفها مليئة بعشق ليلى ، إلى الحد الذي فاق عشقي لها عشق قيس لليلى في التاريخ العربي.

****

صافحتُ والد غيث مرة أخرى . كان ما تبقى من كوب عصير في يدي اليسرى حين صافحته ثم اخذتُ طفلها معي وعدتُ إلى مقعدي . مسكين مسعود ، وجدته يُفكر في ترتيب لقاء معها بعد وصولنا القرية ، ما كان يعلم حينها أن بينه وبين الموت أقل من ساعة ، وما كنتُ حتى أنا أعلم ذلك ، فباركتُ تفكيره ، وشعرتُ أنه يُفكر بشكل سليم ، دون أن اعرف أنه قبل مضي الساعة سوف يقع مسعود خارج الباص وألحق أنا به خارج الباص ، وسوف ينزف كثيراً من الدم وأنزف أنا مثله نفس الكمية ، وسوف تخرج روحه لأبقى أنا بعده لدقائق

اشعر بفراغ كبير حين أتحسس وجهه القريب مني بيدي وأجده بارداً وأعرف سر هذا الفراغ الذي اجتاحني ، وأقول في نفسي أنه ظلي لكنني لستُ ظلاً لأموت وقلتُ أيضاً أن مصيرنا واحد وما مات هو قبل دقائق إلا لأموت أنا بعد دقائق . كان الوقت مساء حين حاولتُ جاهداً أن أعطي شمس الغروب ظهري ، وأتمدد على جنبي الأيمن استعداداً للموت . لم يكن لديَّ شك أن الموت الذي أخذ روح مسعود هو الآن في طريقه لي ، فالحادث أليم وأنا أسمع بعض الركاب يزفرون ، وكان بعضهم في داخل الباص والبعض الآخر ملقى على الأرض قريب مني ساعة تلمستُ مسعوداً وعرفتُ أنه مات . تذكرتُ موعده معها ، وحتى تذكرتها ، وتذكرتُ ابتسامتها الكبيرة التي زرعتها على وجهها لي وأنا اعود لأجلس قريباً منها ومن مسعود . لم تكن ابتسامة بل كانت مهرجاناً . ما كنتُ أحسب أن مَن ابتدع المهرجانات أول مرة كان قد استوحى فكرته من الابتسامة . قلتُ في نفسي وأنا أعود وأجلس على مقعدي لابد أن لمخترع المهرجانات معشوقة كليلى ، ولابد أن لها ابتسامة كابتسامتها ، ولابد أنه في لحظة وجدْ منه قد خطرت على باله فكرة أن يقيم مهرجاناً وطنياً لا يقل روعة عن ابتسامة معشوقته . كانت رائعة بحق وحقيقة ، وكدتُ أسمع موسيقى مهرجانها ، وأرى الاطفال يلعبون على صفحة خدها وينشدون ، وارى ألعاب الزينة تلمع في نظراتها.

أحببتُ الحياة لأجلها ، وتشبثُ بها لأن ليلى فيها ، لكن مسعوداً مات . تلمسته ووجدته بارداً . كنتُ أنزف لكنني ما زلتُ على قيد الحياة وما زال في داخلي بقية من جهد أتحرك به وأحرك مسعوداً لعله يعيش . هززته بوهن ، وتأكدتُ أنه ميت لا محالة ، وقلتُ في

نفسي ما كان المسكين يعلم أنه سيموت قريباً وهو يرتب معها الموعد.

بعد عودتي لمقعدي وجلوسي بدقائق قليلة رأيته يميل من كرسيه لها ويحدثها بصوت خفيض ، وعرفتُ انه تواعد معها دون أن يعرف أن موعده معها ربما في الجنة.

بعد عودتي لهم والجلوس قربهم ، شعرتُ في هذه الساعة الأخيرة بها وبقيمتها أكثر من أي وقت مضى ، وشعرتُ بـ مسعود يشعر بوجودي المختلف عن بقية الركاب ، وأرسل لي إشارات وأرسلتُ له ، وعرف أنه يسبقني وأنا ألحقه . كنا ثلاثتنا نعيش حالة غير مسبوقة ، وشعرتُ برغبة قوية بعناق ليلى وتقبيلها ، لكن مسعود وعبر إشاراته منعني وأقنعني ان أنتظر وأنه لا يصح أمام الناس . وحين وقع الحادث وتلمسته ووجدته بارداً قلتُ له في نفسي لو عانقتها أنت يا مسعود وقبلتها قبلي بحرارة لما صرتَ الآن بارداً ، ولمته كثيراً لأنه حرمني مثل ما حرم نفسه منها.

كانت تلوك علكة صغيرة بلطف وبطئ شديد ، وحين حرمني مسعود من عناقها خطر ببالي أن أطلب منها العلكة لألوكها ، لكن مسعود أيضاً حرمني للمرة الثانية ، وأرسلتُ له إشارة مفادها أن يطلبها هو منها إن كان لا يريدني أن أطلبها أنا منها ، ويلوكها هو بدلاً عني وسوف يصلني منه ، لكنه طلب مني أن أنتظر ، دون أن يعرف أن الموت لا ينتظر ، وحين تلمسته ووجدته بارداً لمته في سري لأنه حرم نفسه وحرمني معه ، وزحفتُ بوهن لأقترب من أذنه الميتة والباردة وأهمس فيها لو لُكتَ علكتها يا مسعود لكان الله قد مد في عمرك إلى أجل أخر.

****

الطفل المصاب والذي تركناه ساعة نزلنا في المحطة مع مسعود وليلى ما عاد شكله كالسابق . خال لي أنه تم الوصول للبذرة في رأسه ، فوجهه تغير وبعد دقائق من عودتي لمقعدي الأول تأكدتُ أنهما تمكنا من الوصول للبذرة . كان الطفل قد أخذ كرسياً قريباً منا ، وكان من حين لآخر ينهض ويمشي صوب والديه اللذين يجلسان في الأمام . كدتُ أقف من الدهشة حين دققتُ النظر في اصابع يديه الاثنين وعرفتُ أنه استجاب وصار يتعافى من الداء . كان شيئاً مدهشاً للغاية ، وكان الطفل تبدو عليه السعادة أكثر من قبل . اشرتُ له ان يقترب مني ، فجاء ووقف إلى جانبي حين تفقدتُ اصابع يديه الاثنين إصبعاً إصبعاً . صافحته وتحسستُ كفه وتأكدتُ أنه عاد بشكل طبيعي جداً ، ملتُ ناحية الطبيب لأقول له وجدته هو الآخر مدهوشاً.

كانت ذراعي الطفل قد بدى عليهما ما يشبه التبدل حين تركناه ونزلنا للمحطة ، وبدى ذلك جلياً في ترتيب أصابع يده من الخنصر حتى الإبهام ، وقد لا يستغرق وقتاً أطول حتى ينقلب هذا الصغير على رأسه . كان شكل كفه الأيمن قد أخذ شكل الأيسر والعكس صحيحاً ، ولم يبقى من يده ما هو في مكانه سوى الوسطى أو الأصبع الأوسط ، ولم يكن في الحقيقة هو الوحيد الذي ظهر عليه هذا النوع من التغيير من بين الركاب ، لكنه كان الأصغر والأكثر مدعاة للشفقة والمساعدة حين جذبه الطبيب له ليداويه ثم تأخذه ليلى.

كنتُ أتمنى لو حضرتُ عملية التعافي كيف تمت ، حتى الطبيب تمنى ذلك ، وفرحتُ كثيراً للطفل وأشرتُ من بعيد إلى غيث ووالده عنه ، فقاما من مكانهما إليَّ حين شرحتُ لهما عنه . جلسا قريباً مني وأخبرتهما عن الطفل وعن المصير المحتوم لولا حظه الكبير ولقاءه

مسعود وليلى في الوقت المناسب . ثم ذهب الطفل لينام قرب والديه ، ونهض والد غيث من كرسيه ولحقه غيث ليصافحا ليلى مصافحة حارة ، بل ان غيثاً انحنى وقبّل يدها ، وليت مسعود قام من مكانه وفعل كما فعل غيث ووالده لكان على الأقل قد نجى من الموت . همستُ في أذنه الباردة مثل هذا التمني الذي فات وقته ، وأخبرته وأنا أشعر بأطرافي صارت تبرد هي الأخرى أن غيثاً ووالده لابد أنهما الآن على قيد الحياة ولو قمت يا مسعود وفعلت مثلهما لما بردت أطرافك ومت ، ولما صارت أطرافي هي الأخرى تبرد.

كنتُ اشعر بالبرد قد تجاوز قدميَّ الاثنين وصار يصعد مع الساق ساعة خشيتُ أن يكون هو الموت ، وأصابع يديَّ قد صارت تبرد ويصعد البرد منها إلى أعلى حين سألتُ مسعوداً إن كان هذا هو شكل الموت الذي أخذ روحه . وكان مسعود فاغر الفم ولا يجيب بشيء ولا يتنفس . حاولتُ أن أسحب اكبر قدر من الهواء إلى صدري لعلي أطرد الموت عنه ، وحاولتُ أن أحرك أصابع قدميَّ وأصابع يديَّ لعلي أعيد لهم الحرارة التي كانت فيهم قبل قليل ، ولكن عبثاً كنتُ افعل ، وسمعتُ أحد الركاب يلفظ نفساً عميقاً وقوياً وقلت لابد انه لفظ روحه مع هذه الأنفاس القوية ، وعاودتُ أسأل أذن مسعود الباردة إن كان الموت يأتي من الخارج أو هو موجود في داخلنا ، ذلك ان البرد الذي يقضم اطرافي ويصعد أشعر به يأتي من الخارج.

وإذا كان الموت موجوداً في داخلنا ومتى ما حان أجله تحرك فهذا يعني أن ما أشعر به ليس موتاً ، أما إذا كان داخلنا خالياً من أي موت فهذا يعني أنني في طريقي للحاق بمسعود.

لم يجبني فم مسعود الفاغر . رفعت جفنيَّ بصعوبة بالغة لأنظر

جيداً في فم مسعود وأخمن عن آخر كلمة نطق بها . لم يطاوعني رمش عيني إلا بصعوبة بالغة لأرى فمه وأتصور اسم ليلى هو آخر ما نطق به ، وقلت وأنا أجاهد لأراه أكثر لو نطق بالشهادة لكان مسعود الآن في الجنة ، لكنه نطق بليلى ولا أعرف إن كانت ليلى لوحدها ستقوده للجنة أم لا ؟ واستجمعتُ كل قواي لأركز أكثر واستدعي الشهادة وأسم ليلى معاً وأضعهما قريباً من فمي حتى إذا عرفتُ وتأكدتُ أن هذه البرودة التي ماانفكت تصعد معي هي الموت نطقت بليلى أولاً ثم بالشهادتين . رأيتُ أن ذلك سوف يكون اكثر ضمان لبلوغ الجنة ، أما إذا لم تكن هذه البرودة موتاً فإن ذلك سوف يُحسب لي أجراً عظيماً في الدنيا والآخرة.

****

أغمضتُ جفنيَّ أ أو بالأحرى ارخيتهما فعادا لوحدهما على بؤبؤ عيني ، وما عدتُ أرى شيئاً حين اقتربتُ أكثر من اذنه الباردة وصرتُ أهذي في تجويفها البارد وأقول مَن يدري يا مسعود أن لا تكون هذه الحسناء هي فكرتنا الحسناء التي قلبوها على جدار السرايا . لم تسمعني أذنه ، كانت ميتة . حاولتُ أن أعيد فتح جفني ولكن هذه المرة لم أستطع ، وقلتُ ربما يكون الموت قد بلغ مني مبلغاً كبيراً حتى بتُ عاجزاً حتى عن فتح عينيَّ . لكن قلبي مازال يدق . كنتُ أسمع دقاته كأنه في اعماق بئر ، ورئتاي ما زلتا يعملان ويجاهدان معي ليسحبا الهواء من الخارج ويعيدانه للخارج ، وكنتُ اشعر أحياناً أنني سوف أعيش وفي أحياناً اخرى يراودني هاجساً أنني أعيش آخر دقائق عمري ، وكنتُ من حين لآخر أسمع أحد الركاب قد زفر نفساً قوياً وأسمع معها حشرجة جسده على التراب فأقول في سري أنه مات.

زحفتُ أكثر حتى لامست شفتاي أذن مسعود الباردة وسألتها لما لا تكون ليلى فكرة ، كل البشر الذين يمشون على الأرض هم مجرد أفكار نفخ فيها الله لتتجسد على هيئة بشر تمشي على الأرض ، ومَن يدري أن لا تكون ليلى هي فكرتنا التي نفخ فيها الله لتتجسد ليلى ؟ كانت أذنه قريبة جداً من مقدمة أنفي حين فاح عليَّ من داخلها رائحة الصمغ ، وأيقظتني الرائحة من هذا الهذيان الذي انا فيه ، وتراجعتُ قليلاً عن الصمغ لعلني اعود لهذياني الذي يمضي بي إلى خيالات بعيدة ، وملتُ أكثر لأصلح من وضعي وأنام على ظهري ووجهي إلى السماء ، وشعرتُ بوضعي الجديد يساعدني اكثر على فتح جفني . كانت بعض نتف السحاب صغيرة وبيضاء كنتف الصوف حين تراءى لي وجه ليلى هناك عند السحاب . ابتسمتْ لي ، وبادلتها ابتسامة ، وحاولتُ أن أحافظ على ابتسامتي أطول زمن ممكن ، فلو كان ما بي موتاً ، وزحفت برودته من الأطراف حتى وصلت وجهي وهو مازال مبتسماً ، عندها سيظل مبتسماً ، وعندها أيضاً سيقول كل مَن يشاهدني ميتاً ومبتسماً إن هذا الرجل إما أن يكون شهيداً أو ولياً صالحاً . كانت نتف السحاب تمضي وتأتي غيرها ووجه ليلى مبتسماً لي وأنا أعكس ابتسامتها على وجهي وأتمسك بها أطول زمن ممكن ، وشعرتُ بوجهي تتبدل ملامحه لشكل جديد لم اتبينه حين قلتُ في سري لو أخذ وجهي تبدله الجديد من ابتسامة ليلى فهذا يعني إما أن أكون شهيداً أو ولياً صالحاً . وما زالتْ أُذنيَّ يسمعان من حين لآخر زفرة من أحد الركاب ، وما زال قلبي يدق وما زلتا رئتاى يعملان لأعيش ، وما زلت شراييني تفتح بصعوبة ليمضي الدم إلى ابعد مدى ويصد تقدم الموت الآتي من الأطراف.

قلتُ في نفسي لو عشتُ وكُتبت لي مزيد من الحياة سوف أخبر الناس

أنه لا يوجد في داخلنا سوى جذوة من حياة ، أما الموت هو شيء يأتي من الخارج ، لذلك لا تقلبوا الجذوة على رأسها فتموت . شعرتُ بنفسي أهذي أكثر من قبل ، ولكن ما زالت أُذنيَّ يسمعان من حين لآخر زفرة من أحد الركاب ، وما زال قلبي يدق وما زلتا رئتاى يعملان لأعيش ، وما زالت شراييني تفتح بصعوبة ليمضي الدم إلى ابعد مدى ويصد تقدم الموت الآتي من الأطراف ، وما زلتُ أهذي وربما ما زلتُ سأهذي.

الجنوب - سمنو/ 12/2014

brhoom068@gmail.com

صدر للكاتب رواية "بلقاسم"2013